وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية

النقد الذاتي..

رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية الراهن ورؤيتها للحاضر والمستقبل

سلسلة إصدارات
مجلة الوعي الإسلامي
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الإصدار الخامس

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية

النقد الذاتي..

رؤية إسلامية نقدية
لواقع الصحوة الإسلامية الراهن
ورؤيتها للحاضر والمستقبل

سلسلة إصدارات
الوعي الإسلامي
الإصدار الخامس
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الوعي الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في دولة الكويت
في مطلع كل شهر عربي

أعد الإصدار وأشرف عليه

كل من:

الأستاذ/ أنــور حمـد الحمـد

الدكتور/ محمد الأمين ولد سيد المختار

الأستاذ/ تمام أحمد الصباغ

الموقع على الانترنت: www.alwaei.com.

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة

١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف: ٢٤٦٧١٣٢ - ٢٤٧٠١٥٦

فاكس: ٢٤٧٣٧٠٩

حقوق الطبع محفوظة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما ننشغل في الدعوة إلى الله، ونستغرق في عملية البناء والتأسيس ونقطع أشواطا في تنفيذ البرامج والمناشط وتعقد المؤتمرات والمنتديات التي يلتقي فيها الدعاة والمفكرون لبحث سبل نهضة الأمة ورسم معالم المشروع الإصلاحي الأمثل، تنكشف لنا مساحة هامة من الواجب الالتفات إليها وقضية محورية ينبغي البحث فيها ووضعها في الحسبان ألا وهي قضية «النقد الذاتي».

وعملية النقد التي نعنيها هنا تتجه بالأساس إلى مراجعة مسيرة عمل الصحوة الإسلامية خلال العقود الأخيرة مراجعة نقدية تبرز إيجابياته وتنبه إلى مواطن الخلل فيه والعثرات واستخلاص العبر والدروس من ماضي عمل هذه الصحوة المباركة ترشيدا لها وتسديدا لخطاها لتحقق النتائج المرجوة منها على أكمل وجه.

ونحن هنا نعي تمام الوعي خطورة عملية النقد وحساسيتها، وأنه سلاح ذو حدين يستخدم في البناء والتوجيه والإصلاح، كما أنه قد يستخدم في الهدم وتأجيج الخصومات وتحطيم ما تم بناؤه، وذلك ما لا نريده ولا نتمناه.

ما نريده ونسعى إليه هو النقد الهادف والبناء الذي يسعى لصقل التجربة وتحصين الذات وشحذ الهمم واستنهاضها، وذلك انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (الرعد -١١).

وهنا تبدو الإشـــارة واضحة إلى أن مسألة التغيير والإصلاح مرهونة بالرجـــوع إلى الذات ومحاســـبتها وأن التأخر والتقـــدم بأيدينا. من هذا المنطلق يجـــب المبادرة بالمراجعـــات النقدية وتحمل تبعاتهـــا مهما كانت شـــدتها وبذل الجهد لترتيب أدوات الامتصاص الإيجابي للآراء المخالفة واســـتقبال الرأي الآخر بكل تقبـــل وإيجابية. ويجب أن يزيدنا هذا النقد ســـواء كنا دعاة أو قـــادة أو اتجاهات وجماعات تواضعا واســـتجابة لله ورســـوله: ﴿**يأيها الذيـن آمنـوا استجيبوا للـه وللرسـول إذا دعاكم لما يحييكـم واعلمـوا أن اللـه يحول بـين المرء وقلبـه وأنه إليه تحشـرون**﴾ (الأنفال- ٢٤).

وتأكيدا لهذا المعنى وتماشـــيا مع الخطة الاســـتراتيجية لمجلة الوعي الإســـلامي ورســـالتها، ارتأينا أن نخصص هذا الإصدار لقضية «النقد الذاتـــي» وذلـــك من خلال اختيـــار مجموعة من الكتابـــات المتميزة التي تناولت هذه المســـألة من زوايا مختلفة في مقالات كان للوعي الإسلامي شـــرف نشرها في أعداد ســـابقة، ونقدمها الآن لقرائنا الكرام في شكل كتاب لتعم الفائدة.

والشكر موصول لقطاع الثقافة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على دعمه المادي والمعنـــوي لهذا العمل، والذي نرجو أن يكون في ميزان حسنات القائمين عليه وكل من ساعد فيه من قريب أو من بعيد، والحمد لله رب العالمين.

أنـــور الحمـد

رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»

أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر.. (*)

بقلم الاستاذ/ محمد الصالح بن عمر عزيز - تونس

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٣٢١ ص ٨٠

«إن الكلمة لمن روح القدس، إنها تساهم الى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد إذ تدخل إلى سويداء قلبه فتستقر معانيها لتحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة»

(مالك بن نبي: شروط النهضة)

■ تعني «الكلمة» جوهر الحياة بكل أشكالها وألوانها وطعومها، ومنها تنطلق شرارة التغيير كلما كانت واعية منبثقة عن معطيات الواقع الحضارية فالكلمة - مسموعة أو مقروءة - تعني جوهر الحياة بكل أشكالها وألوانها وطعومها، منها تنطلق شرارة الثورة والتغيير إذا كانت واعية منبثقة عن معطيات الواقع الحضارية، فتصنع العقول، وتصوغ المشاعر، وتحرك الناس وتنبههم وتوضح لهم معالم الطريق، وتكون الضوء الكاشف والزاد المغذي بالطاقات المعنوية، فتورق الحضارة ويبزغ فجر النهضة ويتغير تبعا لذلك وجه التاريخ، والكلمة إذا كانت صادقة التعبير والتوجه مفتاح كل نقلة معرفية فاعلة، لها أثر هام في توجيه المجتمع نحو التقدم والتحرر، ومن خلالها تتجلى مظاهر السمو والاستقامة، وبها يقاس التطور والرقي، وعبرها تستبين الغايات وتتفتح الرؤى..

فعوامل نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ إنما مهدت لها كتابات ومجالس فولتير وروسو ومونتسكيو، وقيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ إنما مهدت لها أعمال بوشكين وغوغول ودوستوفسكي سبل النجاح، ولذلك نجد القرآن الكريم يقرر أنه لا توجد معرفة لا تمر باللغة، وبالتالي إلى التغيير ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾ (ابراهيم،٤).

ولاشـــك أن الخطـــاب القرآني هوالذي كان وراء تحـــول المجتمع العربي مـــن مجتمع جاهلي إلى مجتمع متحضر قاد الإنســـانية ردحا من الزمن في طريق الخير والأمن والســـلام، وذلك بما تحمله الكلمة القرآنية من قوة دافعة محركة، وما فجرته في النفس البشـــرية من قدرة هائلة على العطاء والبذل لم تســـتطع قصائد الشعر ومعلقاته أن تفجرها قبل ذلك، وما تتميز به - الكلمة القرآنية - من شـــمولية وواقعية وتكامل، استطاع العقـــل- الذي دعـــي لأول مرة ليقوم بدوره كامـــلا - أن يرتبها وينظمها ويوظفها التوظيف الإيجابي، فكان الإنســـان المســـلم النموذج الذي جعله الله شـــاهدا على بقيـــة الخلق ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾ (البقرة،١٤٣).

وظـــل الخطاب القرآنـــي فعالا، قادرا على تعبئـــة الجماهير ودفعها إلى البذل بالنفس والمال والوقت، والفكر يخاطب الإنســـان بعقله وهو يدعوه إلى التفكر في ملكوت الســـماوات والأرض والنفـــس والحياة، ويخاطبه بقلبه وهو يستشـــعر دوافع الرغبة والحب والكراهية، وينمي فيه حاسة إدراك مواطـــن الجمال، ويخاطب حواســـه وهو يدعوه إلـــى التدبر في خلق الله.. حتى إذا اختلطت المفاهيم وتغير الفكر الإســـلامي، وبدأ العد التنازلي للحضارة الإسلامية، تغير تبعا لذلك الخطاب، فأصبح مطبوعا بسمات التخلف الذي يعيشـــه المجتمع الإسلامي «عندئذ تموت الأفكار وتظـــل العقول خاويـــة واللغات عاجزة، ويعود المجتمـــع إلى الطفولة من جديد، والطفل عندمـــا يفتقد الأفكار يلجأ الى طريقته البدائية للتعبير بالإشارة والنغمة الصوتية وتظهر في هذا المجتمع الذي عاد إلى الطفولة

ظواهر غريبة لتعويض قصوره في الأفكار، ويكون هذا المجتمع مرغماً على الاستعاضة ببدائل ولاسيما في أوجه نشاطه الفكري» (مالك بن نبي مشكلة الأفكار).

فما هي مواصفات الخطاب الإسلامي الحديث؟

لاشك أن الحركات الإسلامية التي نشأت في مجتمع متخلف في جميع الميادين ظلت معها أبرز السمات التي طبعت مجتمعها الذي نشأت فيها سواء على مستوى التخطيط أو على مستوى العمل الجماعي، أو على غيرها من المستويات، انعكس كله على الخطاب لأنه يمثل المرآة التي تنعكس عليها حالة المجتمع الحقيقية وحقيقة العمل الذي انتجه (أي الخطاب).

لقد اتسم الخطاب الإسلامي الحديث بصفات عديدة أبرزها:

١- عدم الدقة والوضوح والفهم السليم لسنن الله في الكون، وإهمال الجانب العلمي السنني في ديننا حتى وصفنا بالفكر الخرافي الذي لا يؤمن بالقوانين والمنهجية العلمية في رؤية الأحداث وتحليلها، أي العجز عن رؤية الارتباط في الأحداث بين الأسباب والنتائج.. وبذلك سيطر الخطاب العاطفي على تصريحات العاملين للإسلام عبر العقود الأخيرة، ولا يزال مسيطرا حتى الآن سواء على ما يقال أو ما يكتب، بل لعل أخطر مشكلة يعاني منها جيل الصحوة الإسلامية اليوم «أنه لايزال يعيش مرحلة الخطاب العاطفية والشعارات الحماسية أو ما يمكن أن نسميه «زعامة الخطبة» التي تشحنه بالعواطف والاندفاعات دون القدرة على الأخذ بيده إلى الطريق الصحيح، ووضع الأوعية الشرعية لضبط

حركتـــه، الأمر الذي قد يؤدي به إلى ممارســـات مغلوطة» (تقديم كتاب مشكلات الشـــباب للدكتور عباس محجوب) مما جعل مقولات الخطاب الإســـلامي حقائق موضوعية، وبعبارة أخرى كان الخطاب الإسلامي في جملته ولا يزال خطاب وجدان وليس خطاب عقل. لقد كان ولايزال يعبر عمـــا يجده الكاتب أو الخطيب الإســـلامي في نفســـه من انفعالات إزاء الأحـــداث وليس عن منطق الأحـــداث. (انظر: الخطاب العربي المعاصر - د. محمد عابد الجابري ص٣٣)، الشـــيء الذي يؤكد عزلة الإسلاميين عما يدور حولهم من الأفكار والثقافات التي ظهرت على ساحة الأعداء، وعدم قدرتهم على الاســـتفادة من الخطابات المضـــادة، لأن الوجدان - بمفرده - لا يســـاعد على التخطيط العقلانـــي ولا على مواصلة العمل، كل ما يســـتطيعه الوجدان هو الدفع إلى مزيد مـــن الرغبة أو مزيد من الخوف، وصراع الرغبة والخوف لايمكن أن ينتهي إلا إلى شيء واحد هو الهروب إما إلى الوراء وإما إلى الأمام، إما إلى أقصى التشـــدد وإما إلى أقصى التسامح..

٢- إن الخطاب الإســـلامي ظل عاجزا عن إقناع تيـــار الحركة الاجتماعية الجديـــدة بواقعية مذهبيته العامة ذات الســـمات الخالدة، وذلك لبقائه في إطار تعميمات ثقافية إســـلامية عامة أهملت دراسة طبيعية العصر وثقافته وتجذر الفكر والحياة فيه، الأمر الذي أبقاه مشـــلولا من الناحية الواقعيـــة بلا منهج محدد مرحلي للحياة والحركة المدروســـة المتفق على تفاصيلهـــا بكل دقة.. ويتجلى هذا التعميـــم بصورة خاصة في الخطاب

السياسي.. فمع كثرة المتكلمين في السياسة ومع تنوع اختصاصاتهم ودرجاتهم العلمية ومع وفرة الكتاب والمقالات والأبحاث في الموضوع، فإن المطلع لا يسعه إلا أن «يسجل أن حصاد المعركة لا يتعدى التأكيد على ما كان وما يزال يعتبر في هذا المجال من قبيل البديهيات» (الخطاب العربي المعاصر) ولئن طغى على الخطاب السياسي في الفكر الإسلامي القديم اللجوء إلى ممارسة السياسة على الصعيد النظري بواسطة الرمز كإجراء الكلام على لسان الحيوانات أو من خلال الأمثال والحكم، فإن الكلام في السياسة في الخطاب الإسلامي المعاصر لا يتناول القضايا مباشرة بل يلجأ إلى طرحها من خلال قضايا تنتمي إلى سياسة الماضي، أو إلى ميدان آخر ليس ذا طابع سياسي مباشر.. فلم يكن كافيا للشيخ حسن البنا - مثلا- «أن يقول لكل من يسأله عن برنامج الجماعة إن ذلك البرنامج هو القرآن، ولا كافيا ان يقول إن مطلبه هو إقامة «حكم إسلامي»، ولا كافيا بنفس المقدار أن يزداد الضغط عليه للإفصاح عن برنامجه فلا يجد ما يقوله غير عندما تكون لدي الكلمة وتجيء الظروف المناسبة فسوف نتكلم عما يمكن عمله على ضوء الواقع الذي نجده، وحتى يحدث هذا فلن ندخل أنفسنا في ضباب التفاصيل كل ذلك لم يكن كافيا، فليس في مقدور حركة سياسية أن تكون فعالة ومؤثرة دون أن يكون لها برنامج محدد يلتقي على أهدافه كل المؤمنين بهذه الأهداف» (خريف الغضب: محمد حسنين هيكل).

ويظهر هذا المرض في الانتفاخ الكاذب الذي اتصف به العمل الإسلامي في العقود الأخيرة حين أراد أن يعمل في مساحات أكبر من حجمه بعشرات

المـرات (مجلة الأمـة عدد ٤٩) ويظهـر كذلك في غيـاب أبجديات العمل الإسـلامي وفي عدم فهم قوانين التغييـر الاجتماعي، فظننا أنه بمجرد أن يكون المجتمع مسـلما في الظاهر يكفـي أن يرجع الى طريق الحق بتذكيره بدينه ونبيه وأخلاقه بواسطة خطبة جمعة حماسية أو مقال صحفي عاطفي، ولم ندرك أن للكون قوانين تحكمه وتسيره، وأن الزمن قد تبدل تبدلا عظيما في مشـاكله وهمومه وتعقيده والقوى الخفيه التي تحركه، وأن معظم الناس لينهارون من أول الطريق ويسـقطون في أقرب صدمة ويلوون أعناقهم لأي طاغية يصفقون ويهرجون.

٣- اتسـم الخطاب الإسـلامي بعدم الواقعية وعدم احترام المرحلية، فحلق بأبناء العمل الإسـلامي عاليا في عوالـم مثالية لا ظلم فيها ولا كراهية ولا خطايا، حتى إذا ارتطمـوا بالواقع وما يزخر به من تناقضات، كانت الصدمة قوية، فكان التفكيـر وكان الهروب من مواجهة المجتمع، وكانت الردة واليأس من نجاح الإسـلام في قيادة المجتمع الحالي.. وبردة فعل مرتجلة وقع القفز بسـرعة فائقة من الخطاب الملكي التربوي لتصحيح عقيدة المسـلمين وتنقيتها مما شـابها مـن انحرافـات وتربيتهم تربية إسـلامية واعية إلى الخطاب المطالب صراحة بتسلم السلطة السياسية لتطبيق حدود الإسـلام والتمكين لأحكام شريعة الله في جميع مجالات الحياة.

ومن مظاهر غياب الواقعية أيضا في الخطاب الإسـلامي - المعاصر - هذا القفز على الواقع غير مكترثين بعاملي الزمان والمكان، وهما السبب

الرئيسي في ذلك التضخم في طموحاتنا، هذا التضخم الذي يربط نهضة المسلمين بقيادة الإنسانية وليس فقط باللحاق بالركب الحضاري الراهن، ويجعل الرضى بالحلول الجزئية ضربا من الخيانة والعمالة..

ومن مظاهر غياب الواقعية أيضا في الخطاب الإسلامي المبالغة والتهويل في وصفنا لأنفسنا أو في نقدنا لخصومنا.. فنحن تارة نبالغ في نقد الحضارة الغربية دون أن نبحث عن نقاط قوة فيها يجب أن نعرفها لمعرفة الخصم على حقيقته.

وهكذا بدأ البعض يلح على حتمية انهيار الحضارة الغربية الراهنة بسبب غلوها المادي وإغفالها الجانب الروحي، وطورا نبالغ في التهويل من قوة الأعداء بينما الأمر لا يعدو أن يكون ضعفا فينا وليس قوة في الأعداء..

ونحن تارة نصف مجتمعنا بأنه يعيش في جاهلية «كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة اسلامية وتفكيرا إسلاميا هو كذلك من صنع هذه الجاهلية»(معالم في الطريق: سيد قطب) وطورا نبالغ في مدحنا لأنفسنا والاعجاب بمنجزاتنا، ونبالغ في التهوين من شأن العوائق في مسارها، حتى لاحظ أحد المراقبين للحركة الإسلامية أنها تهول في المدح إذا مدحت، وفي الذم إذا ذمت، كما تبالغ في الحب إذا أحبت والكره إذا كرهت، هذا التهويل أصاب العمل الإسلامي بالعقم والجمود والفتور.

٤- اتسم الخطاب الإسلامي في الفترة الأخيرة بالجفاف، حتى أصبحنا لا نفرق بينه وبين خطاب الآخرين، فأسقط البعد الغيبي عن صياغة حياة المسلمين مما أفقدهم مجرد الأمل الدافع إلى التغيير، وعجز عن تفجير الطاقة الروحية الكامنة فينا والتي كان لها الفضل الأكبر في تعبئة الجماهير المسلمة للجهاد والتضحية والبذل، فانتصرت على هجمات التتار والصليبين وغيرهم ممن كادوا للإسلام.

٥- اتسم الخطاب الإسلامي - المعاصر - باضطراب في المفاهيم خاصة على مستوى المصطلح، فلم يستطع أن يحسم مفهومات الجماعة، الأمة، القومية، الفكر الإسلامي الثقافة الإسلامية، الدعوة، الداعية، الشورى، الديمقراطية، الحرية، الوحدة، الدين، الدولة.. مما انجر عنه اضطراب في أفعال وتصرفات المنتسبين الى العمل الإسلامي وانتشار ظاهرة الخروج على العمل الجماعي، وظهور الفرق الإسلامية المتعددة والمختلفة المشارب، الأمر الذي أفقد العمل الإسلامي مصداقيته عند أتباعه.

٦- لازال الخطاب الإسلامي قاصرا عن الوصول إلى قلب «النخبة» من المثقفين، هؤلاء الذين غزاهم الفكر الدخيل فحرف أفكارهم ومفاهيمهم وأثر في مشاعرهم وولائهم، ولازال كذلك قاصرا عن إزالة ذلك السور الذي ضرب بين الحركة وبين الجماهير العريضةالتي قامت الحركة أساساً لتنهض بهم وتأخذ بأيديهم وتعلم جاهلهم وتنصف مظلومهم، والتي استطاع الخصوم الماكرون أن يخوفوا أعدادا منها - أي الجماهير - من يقظة الإسلام ورجاله، ونشروا من الأكاذيب حولها مما يزهدهم فيها..

٧- اتصف الخطاب الإسلامي - المعاصر - بالخاصية التجزيئية عند طرحه للمشـــاكل والبحث لها عن حلول، فانبرينا نجزئ الإســـلام كما أراده لنا الخصوم، نأخذ هـــذا الجزء أو ذاك منفردا أو وحده، ثم نعمد إلى نقده وتجريحـــه، غير مدركـــين أن كل جزء من هذه الأجـــزاء، إذا نوقش على حدة يفقد الكثير من معناه ولا يصبح جزءا منطقيا أو صحيحا، فظهرت بذلك كتب تحاول الدفاع عن موقف الشـــريعة من تعدد الزوجات - مثلا - كموضوع قائم بذاته دون وضعه ضمن الإطار الإســـلامي ككل، فجاءت الصورة بشعة ظالمة للشـــريعة السمحة، وظهرت كتب تحاول الدفاع عن موقف الإسلام من حق الملكية الفردية منزوعا من الكل الإسلامي، فكان ما بين أيدينا رأســـمالية لا إسلاما (انظر: الإسلام في معركة الحضارة: منير شفيق).

٨- التزم الخطاب الإسلامي - المعاصر- بالموقف الدفاعي لحماية ما تبقى من مكتسباتنا الحضارية، متناسين أن الموقف الدفاعي هو نوع من أنواع الهزيمة، لايقدر أن يبلغ بنا مرحلة الرشـــد، فـــكان نتيجة ذلك أن كثرت التآليـــف في هذا الباب حتى ملأت رفوف المكتبة الإســـلامية، لكنها لم تزد على أن عمقت فينا الإحساس بالألم والاحساس بالعجز عن مواجهة هذه الهجمة الشرسة على ثقافتنا وعقيدتنا وفكرنا.

هذه - تقريبا - أهم مظاهر الأزمة في الخطاب الإسلامي المعاصر.

فكيف السبيل إلى تجاوزها لتعود إلى الكلمة القرآنية فعاليتها ومردودها؟

١- أن نتجنـــب الخطاب العاطفي في تصريحاتنـــا، ونلتزم الدقة والوضوح

والفهم السليم لسنن الله في الكون.. ولا يعني هذا إلغاء الجانب العاطفي من خطابنا بحيث يصبح خطابا عقلانيا خالصا بعيدا عن أي تأثير للمشاعر، بل إن إحياء المشاعر الإيمانية وإلهاب العواطف الإسلامية جزء من رسالة الإسلام لابد منه لتوفير قدر من الحماسة يدفع إلى العمل وإلى البذل، إنما يعني ألا تكون الانفعالات والعواطف هي الموجهة لخطابنا، ذلك أن العاطفة تضر أكثر مما تنفع، وبدل أن تقود إلى تجمع واع تصبح مجرد إثارة ومجرد اتجاه مغلق يرفض كل تطور ويحصر جهده في مقاومة المخالفين.

وبكلمة أوضح، لابد أن يكون الخطاب الإسلامي متكاملا ومتوازنا، فلا يكون خرافيا، ولا يكون علمانيا بحتا، بل أن يعطي لسنن الله مكانتها وفاعليتها الحقيقية في كل الأمور التي تهم تصريف الحياة الدنيوية مع عدم إهمال الجانب الغيبي والجانب الإيماني إذا اعتبرنا أننا أمة مؤمنة، وأن الإيمان مفتاح شخصية هذه الأمة ويفجر طاقاتها، حقق لها النصر على أعظم الامبراطوريات في الأرض على الرغم من قلة عددها وضعف عدتها.. ويكون متكاملا، فلا يهتم بالمشاغل الدنيوية للعباد: سياسة، اقتصاد الخ.. ويهمل الجانب الأخروي أو العكس.. ويكون الخطاب الإسلامي معتدلا لايميل يمينا ولا يسارا، يأخذ بالعزائم ولا يغفل الرخص، يبشر ولا ينفر، ييسر ولا يعسر، يجمع بين العلم والإيمان، بين الواقعية والمثالية، بين الثبات على الغايات والتطور في الأساليب لا ينقطع عن الماضي ولا ينعزل عن الحاضر.

٢- أن يكون الخطاب واقعيا، والواقعية أهم خاصية من خصائص الإسلام على الاطلاق، وذلك لا يكون إلا بدراسة واقع الأمة الإسلامية وواقع القوى المعادية، وجمع البيانات والمعلومات اللازمة عنها جميعا وتحليلها من منظور علمي موضوعي، وبتوجيه المواهب الى التخصص على أعلى المستويات في مجالات الحياة كلها حتى يمكن لكل فرد أن يتكلم في اختصاصه بدل أن يتكلم في كل شيء ولايفهم أو يفهم شيئا والواقعية تعني كذلك التزام الصدق والأمانة في كل ما نقول أو نكتب، فلا نسرف في وصف مجتمع ما بالكفر والإلحاد والخروج عن الدين إلا إذا كان ذلك واقعا فعلا.. ولا نسرف في التهويل من قوة العدو أو الاستخفاف بها، كما لا نسرف في مدحنا لأنفسنا أو التنقيص من إنجازاتنا، بل المطلوب أن نتكلم الصدق ولا نخاف في ذلك لومة لائم.. والواقعية تعني كذلك أن نحذر من الهدم دون البناء، لأن مجرد هدم القديم لا يؤدي حتما إلى ثبات الجديد المراد.. ولقد تجلت هذه الواقعية في خطاب رسول الله ﷺ عبر عنها أحد الصحابة بقوله: «كان رسول الله يفرغنا ويملؤنا».

٣- أن يتسلح الخطاب الإسلامي بما يتلاءم وطبيعة العصر والفكر، ذلك «لأن المخاطبين اليوم أصبحوا على درجة من التعقيد جعلت أي خطاب غير مدروس دراسة وافية لا يصل إلى نصف الهدف المنشود» فلا يتحرج من كثرة الأسئلة التي تلقى على الإسلاميين والتي تطالب بتحديد بعض المفاهيم فيجيب عليها إجابات مقنعة ولا يلجأ إلى التعتيم والتلفيق والسفسطة، ولا يفرط في استعمال كل الوسائل المتاحة وبخاصة الكلمة

المكتوبة والصـــورة المرئية التي تغني عن ألف كلمة، والتي تعتبر وســيلة أكيدة وفعالة لتعزيز وتأييد ما ينبغي من الكلمة المكتوبة لأقوام شــتى قد لا يسعفنا التحرك اليهم.

٤- لابــد للخطاب الإســلامي أن يتجنــب الخاصيــة التجزيئية في طرحه للمشاكل ولحلولها، ذلك أن الإسلام - كما أكد الواقع - كل لا يتجزأ، بل إن محاولة تجزئته هي محاولة لضربه في الصميم «إن الإســلام يشكل منظومة متكاملة تتماســك أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتشــكل وحدة عضويــة متحركة حيوية لا تجعل مــن الممكن أن يفهم أي جزء على حدة وإنمــا ضمن وضعه في الإطار العام أو من خلال علاقته بالوحدة الكلية أي بالأجزاء الأخرى مجتمعة في آن واحد».

٥- أن يتجاوز الخطاب الإســلامي الموقع الدفاعي، ذلك أن الاكتفاء بالدفاع كما بينا هو نوع من الهزيمة لا يستطيع أن يبلغ بنا مرحلة الرشد.. ويمكن القــول إن «ســلاح الأدب الدفاعي أو الفكر الدفاعــي بحجمه الطبيعي وكونــه واقعا ضمن إرادة الأمة ومتروكا لاختيارها واختبارها أمر طبيعي وواقع مســتمر، ولازم لبقاء الأمة واستمرارها، والمواجهة الدفاعية يمكن أن تشكل مرحلة من حياة الأمة، وهذا أمر طبيعي وسليم.. لكن أن تكون مرحلة الأدب الدفاعي هي البداية والنهاية، ويكون السلاح الدفاعي هو كل ما تســتخدمه الأمة من أسلحة، فهنا تكمن المشكلة وتحصل الخطورة التــي نحذر منهــا» (نظرات في مســيرة العمل الإســلامي: عمر عبيد حسنة).

٦- لابد للخطاب الإسلامي أن يصل إلى قلوب الجماهير التي هي أولى الجهات بالتعبير عنها، ويبذل جهدا أكبر مع النخبةالمثقفة خاصة فيخاطبها بلسانها ليبين لها ويرد شبهاتها بالعلم لا بالاتهام، ليزيل حاجز الغربة، ويكسر هذا السور المفتعل، ولنعلم أن الحركات التغييرية لن تنجح إلا يوم تكون حركة كل الجماهير لا حركة فئة من الناس.

ولا شك أن دون معالجة هذه النواقص عقبات عديدة نذكر أهمها:

١- افتقاد القدوة المؤثرة: التي يتوازن فيها الفكر النظري مع الممارسات السلوكية، وذلك يرجع إلى ضعف التعامل مع المنهج الذي خرَّج الأوائل، ثم تقديس تلك النماذج واجترار أفكارها وأساليبها دون النظر الى المتغيرات التي بدلت وجه الحياة وأوجدت واقعا جديدا يحتاج إلى طريقة في التعامل جديدة وفكر يتناسب معه.

٢- افتقاد الإسلام المطبق في الحياة الاجتماعية: فنحن هنا أمام ظاهرة مستعصية أصبحت من نوع الغريزة الثانية التي لا تنحل بالوعي الديني المجرد، بل تزداد لأننا نكتب وندعو إلى إسلام غير مجسد في واقع ما، وغاية ما نطمح إليه أن نطالب المدعوين كي يعانقوه من التاريخ.. إن الدعوة إلى الإسلام بدون أنموذج اجتماعي مطبق أو على الأقل بدون برامج متكاملة ودقيقة يكون أشبه بمن يدعو لإعادة مجد روما.

٣- جهل الناس بأمور دينهم، وانحراف كثير من المفاهيم الإسلامية الصحيحة، من أكبر العوائق التي تمنع بلوغ الخطاب الإسلامي مبتغاه، ويصبح الداعية المسلم كمن يخاطب أناساً صماً وبكماً.

٤- العدو المتربص بالحركة الإسلامية، والذي يترقب حتى تنتهي من حل مشكلة ليرمي لها بمشكلة أخرى تشغلها عن الالتفات إلى أهم مشكلاتها وإلى الاهتمام بتحسين وتطوير وسائل عملها.

٥-غياب التنسيق بين مختلف الحركات الإسلامية المتواجدة على الساحة، وتوحيد أعمالها لمواجهة العدو المشترك، من أهم العوائق - هو أيضا - في طريق وصول الخطاب الإسلامي وتأثيره في قلوب العامة وعقولهم.

• • • • • • • •

تجديد الخطاب الديني: ضرورته وضوابطه (*)

بقلم: محمد علي الخطيب - سوريا

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٧٩ ص٤٨

المقصود بالخطاب الإسلامي كلُّ بيان ينشر لتبيين حقائق الإسلام وشرائعه وتاريخه وتراثه في شتى مجالات الحياة عبر مختلف الوسائط والوسائل الإعلامية، وعلى رأسها المسجد، ولكنها لا تنحصر فيه، ويدخل في مفهوم الخطاب المحتوى والأسلوب كما يشمل الوسائل والتقانات.

يتهم الخطاب الإسلامي في الآونة الأخيرة بأنه يغذي العنف والتطرف، وأنه يميل إلى الغلو والتنطع ويعلِّم الكراهية وعدم قبول الآخر.

وهذا يوجب علينا تجلية خصائص الخطاب الإسلامي ودفع الشبهات عنه: لصد الهجمة الجائرة على الإسلام، ومقاومة الحملات الإعلامية التي تعمل على تشويه حقائقه.

وبغض النظر عن الظروف الراهنة، فإن مراجعة الخطاب الإسلامي ونقده عملية حيوية ضرورية، لتقويم مسيرته وتطوير أدائه، لأنه لا يعدو أن يكون جهداً بشرياً واجتهاداً لا عصمة له، وإنما العصمة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن المحفوظ الشهير عن الإمام «مالك» يرحمه الله قوله: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» أي رسول الله ﷺ.

ولأن كل شيء يخلق ويبلى، حتى الإيمان في جوف صاحبه، وبالتالي فإن الخطاب الديني يحتاج إلى تجديد وتطوير في محتواه وأساليبه، ولغته، لرفع مستوى فعاليته وتأثيره، ولتلبية حاجات المجتمع، والارتقاء به، وكذلك حاجات الحضارة المعاصرة، للمساهمة فيها، ولانقاذها والحفاظ على منجزاتها، وليكون الخطاب على مستوى المرحلة الراهنة وتحدياتها الخطيرة.

وهنـــاك ضوابط يجب أن نتقيد بهـــا، ولا نذهل عنها تحت ضغط حمى الحديث عن تجديد الخطاب الديني، ومنها:

١- ألاَّ يؤدي تجديد الخطاب الإسلامي بدعوى مواكبة التطورات والمتطلبات والمعطيات العصرية، إلى تغيير الثوابت أو التخلي عن أي مبدأ من مبادئ الإســـلام أو الأحكام الشرعية المقررة، وبخاصة موضوع حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والتخلي عن الجهاد لتحقيق أمن إسرائيل التي تشكل ثابتاً من الثوابت الأساسية في السياسة الغربية، وأما العنف السياسي فليس بجهاد! وكذلـــك التأويل العصري للنصوص، لتتوافق مـــع القيم الغربية الليبراليـــة، أو تعطيل الزكاة إلخ... فهناك إذا مطالب مســـتحيلة يجب ألا يتجـــرأ أحد علـــى طرحها منها هجر النصـــوص بتعطيل أو تأويل أو تغييـــب إبطال الفرائض والتكاليف الشـــرعية أو حصر الخطاب الديني في العبادات فقط أو الأحوال الشـــخصية، فهذا تفريق للكيان الإنساني يضاد الفطرة ويناقض المفهوم الشـــامل للإسلام، فالحداثة بهذا المفهوم مرفوضة، وهو غلو وتطرف من قبل من يتبناه.

٢ - التحديث والتجديد ينصب على الخطاب الإسلامي، وليس على الإسلام نفســـه، فقد أتمه الله وأكمله وأجمله، وأمتنَّ علينا بقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ «المائدة -٣».

٣ - مراجعة الخطاب الإسلامي يجب أن يرافقه إصلاح للخطاب السياسي والإعلامي على المســـتوى المحلي والعالمي، وأن تكف وســـائل الإعلام عن

خطابها العدائي ضد الإسلام وقيمه وتاريخه ورموزه، فمثل هذا الخطاب يثير الغيرة والحمية في نفوس أهل الإسلام وبخاصة الشباب، وقد يكون عاملاً من عوامل إذكاء نزعة العنف والغلو على مستوى الخطاب الإسلامي.

٤- تحريك عملية الاجتهاد والتجديد في أسلوب الخطاب ولغته وترتيب أولوياته، شرط مراعاة الثوابت والمتغيرات في رعاية المصالح الطارئة والظروف الجديدة من دون مصادمة أصول الشريعة وقواعدها.

٥- الموازنة والربط بين التأصيل الشرعي والاجتهاد، فالاجتهاد له ضوابطه وشروطة وحدوده وله أهله أيضا وليس مشاعاً لكل من هبَّ ودبَّ ودرج وعوج.

٦- تعزيز أساليب التفكير المستنير وحرية الرأي والتعبير وتقنية الحوار وفن الإقناع، وفن الاستماع، وفهم الآخر وتقبله من خلال إطار إنساني عام، في ظلال قوله عز وجل: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..**﴾ «الحجرات -١٣».

٧- التجديد مهمة من؟ وحق من؟

وهذه مسألة مهمة فاليوم يتجرأ على التجديد، وينظر له أنصاف المتعلمين وأرباعهم وأدنى من ذلك وبعض من لا يعرف «كوعه من بوعه»، فضلاً عن غيرهم ممن لا علاقة له من قريب ولا من بعيد بالإسلام وعلومه وفنونه.

وخلاصة القول: إن مهمة التجديد محصورة في أولي الأمر من أهل العلم، قال عز وجل: **﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾** «النساء -٨٣» ويستعان بأرباب الاختصاص في الجوانب الاقتصادية والإعلامية ونحوها، وهي استشارة علمية أو فنية محضة، ولكنها مرجعية ضرورية بل واجبة شرعاً بحسب النص القرآني، أما أن يتصدر للتجديد من لاعلم له ولا فقه ولاخبرة ولا قدرة على الاستدلال بالنصوص، وإنزالها في منازلها، ولا يدري شيئا عن قواعد الاستدلال من حيث العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والنسخ والمصالح والمفاسد وهؤلاء وإن كانوا بارعين في مجالات معينة أو في اختصاصاتهم وفنونهم التي يشتغلون بها، ولكنهم في العلم الشرعي لا يخرجون من فصيلة العوام فالتجديد مهمة الراسخين في العلم وأهل الحل والعقد في الأمة عبر المجامع والمؤتمرات العلمية الجامعة التي تتمتع بالاستقلال وحرية الرأي وإذا لم يبادر أولو الأمر إلى توافر البيئة المناسبة لاحتضان هذه المجامع والمؤتمرات فليرتقبوا فوضى فقهية وفكرية ينهار إثرها سيل العرم، ويجرف معه بقية قوة وتماسك خير أمة.

٨- العمل على تكامل وتناسق جهود الدعاة والإعلاميين والتربويين وسائر المعنيين بالخطاب الإسلامي، درءا لوقوع التناقض في الخطاب الإسلامي، مما يشوش الجمهور المستقبل للخطاب، سواء في المجتمعات

الإسلامية أو في أوساط غير المسلمين وتتجلى ضرورة التكامل أيضاً في مراعاة منهج القرآن والسنة في إيصال الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وتجنب ما ينفر من قبولها.

٩- ضرورة الاستفادة من جميع التقنيات الحديثة في مجال التواصل والاتصال وبخاصة القنوات الفضائية والشبكة العالمية «الإنترنت» وذلك لتيسير إيصال الخطاب الإسلامي إلى الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم.

١٠- ضرورة بذل الجهد والمال من قبل المؤسسات الحكومية والخيرية والدعوية وكذلك من قبل الأفراد القادرين، على إيصال الخطاب الإسلامي من خلال وسائل الإعلام المتنوعة والكثيرة، لإيضاح حقائق الإسلام، وإزالة الشبهات وتفنيد التهم التي تثار حوله.

• • • • • • • •

التطرف الفكري في حياتنا
دوافعه وعلاجه (*)

أ. د. محمد كمال شبانه - مصر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٧٢ ص ١٤

ماهية التطرف:

التطـــرف حركة باطنية نفســـية أو عقليـــة، أو هما معـــاً، بمعنى اقتناع النفس الإنســـانية بعقيدة أو بفكرة إلى مســـتوى الفيض، وهو في حد ذاته نوع من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الواحدة، بحيث يتراءى للمتطـــرف أن الزاوية التي يرى منها هي الزاوية الوحيدة للنظر، وأن كل ما ســـواها باطل، وهذا هو عين القصور فـــي المنهج التعليمي، وطبيعي أن هذا التفســـير للتطـــرف إنما ينصرف إلى التطرف الأعمى الذي لا يســـتند إلى أسباب موضوعية أو منطقية سليمة، تحدوها سلامة الهدف والغاية.

أما التطرف في حق مثلاً فواجب أخلاقي وديني في آن واحد، وقد جنح رسول الله ﷺ إلى التطرف في المواقف التي تستوجب ذلك «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، أو أهلك دونه».

وعلـــى هذا يمكن القول: إن التطرف نوعان: تطرف عليل، وآخر صحيح، فـــالأول هو الذي تغلـــب فيه الفكـــرة المتطرفة الوحيدة، وتشـــمل المجتمع، ويتبناها فريق، فيقتل بها كل ما عداها من أفكار، أما التطرف الصحيح فهو ذلك الـــذي يتصدى للفكرة المتطرفة الوحيدة، ويقـــوم الصراع بين الفكرين المتطرفين، بحيث يتولد عن هذا الصراع غالباً بروز الحقيقة مجســـدة، على شكل فكرة ثالثة حديثة تظهر شامخة للعيان.

وهناك تعاريف أخرى للتطرف المجرد، كما يُقال: إن التطرف هو الإنجاز فوق المطلق لمذهب سياسي أو ديني، نتيجة اقتناع بشكل ومضمون هذا المذهب

منهجاً ودستوراً في الحياة، دون غيره من المذاهب والاتجاهات الأخرى.

وعلى هذا فليس التطرف في الرأي إلا نوعاً من العجز عن رؤية الجوانب الأخرى من الفكرة الوحيدة، بحيث يخيل للمتطرف أن الجانب الذي يرى منه هو الجانب الوحيد للنظر، وأن كل ما سواه باطل.

سماته:

للتطرف الأعمى بالذات سمات خاصة، فهو عادة يكون رد فعل وليس فعلاً قائماً بذاته، كما أنه غالباً ما يكون نظرية مغرضة خالية من شرف الغاية، فهي حينئذ إما ستار لإخفاء عدم البصر بحقيقة الأشياء، أو وسيلة لتحقيق غايات سياسية معينة، أما كون التطرف الأعمى ستاراً لإخفاء الجهل بحقائق الأمور فيلاحظ مثل ذلك في بعض الأقطار الإسلامية التي لم تبلغ درجة مناسبة في معرفة حقيقة الدين الإسلامي وأصول التشريع فيه، بينما نرى ظاهرة التطرف هذه لا تكاد تنتشر في الدولة الإسلامية ذات الرسوخ في العلم بمقاصد الإسلام، وتفهم أحكامه كما ينبغي.

وأما كون التطرف هذا وسيلة لبلوغ أهداف سياسية، فإن المشاهد أن التطرف الأعمى في الدين أو السياسة أو النظام الاجتماعي أو الاقتصادي... غالباً ما يكون طريقاً لنيل أهداف سياسية لأصحابه، بحيث يستغلون الجماهير ليصلوا بها إلى مراكز السلطة.. فإذا ما وصلوا فعلاً لأهدافهم فإن التطرف يظل دستورهم، يحتفظون به شعاراً للإبقاء على مكاسبهم، وفي المقابل، فإن التطرف الأعمى نفسه يبقى كذلك وسيلة خصومهم للتربص بهم متى واتت الفرصة، وما أكثر من يندفع من الشباب «ليموتوا في معركة

ليســت معركتهم»، فهل يحذر هؤلاء الشــباب هذه الحيل التي يروج لها ذوو الأغراض وأصحاب الخلفيات؟ وهل يذكر الشباب أن الدين . بادئ ذي بدء . إنما هو حب وسماحة وتقوى قبل كل شيء، وأن الوطنية . بعدئذ . عمل وبناء وتفان وتعاون؟.

التطرف والعنف:

لا ينبغــي أن نخلط بــين مفهوم التطرف ومفهوم العنــف، فالأول - كما ذكرناه - ظاهرة نفسية أو عقلية أو كلاهما، بينما العنف في غالب الأحيان ظاهرة مادية، وقد لا تكون نتيجة فكر أو مذهب، وإنما هي حركة تتولد عن فشل مسعى أو عدم تحقيقه، أو نتيجة نقمة على المجتمع لسبب أو لآخر.

هذا، والتطرف ناتج من عقيدة أو فكرة، تبدو أول الأمر في أول توهجها، فتستحوذ استحواذاً كاملاً على النفس، بحيث لا تتصور العقلية شيئاً سواها، فالإنســان فــي أول أطوار إيمانه يمثــل الطفل الذي لا يســتطيع أن يفارق أحضان أمه، أو كالعاشق الولهان الذي لا يرى إلا صورة معشوقته، ولا يسمع إلا صوتها، ولا يشم إلا عبيرها، فهي - في نظره وحده - المثل الأعلى جمالاً وكمالاً، وربما عقلاً... فتســتولي على فكره وعقله وقلبه، ولهذا صدق قول بعضهم: «إن التعصب المقيت هو جنون العقلاء، يســتبد بهم، فينسون الأهل والأصحاب، والمشاق والصعاب، ولا يقبلون لومة لائم».

حقاً ما أكثر من يندفع من الشباب الذين يجتاحهم الوهم، ويسيطر عليهم الخيال، ويصابون بما يمكن أن نسميه «**الحَول الفكري**» الذي يقود صاحبه إلــى التطرف الممقوت، والذي يصاحبه العنف في ســبيل تأييد تلك الأفكار

المضللة، فهل يحذر شباب الإسلام أمثال هؤلاء وأولئك الضالين المضللين؟ وهل يذكر شباب في وعي وذكاء أن محمداً ﷺ لم يكن سفاحاً ولا قاتلاً ولا مخرباً، كما أنه لم يكن يوماً ليشعل الحرائق أو يغتال الآمنين؟ إنما كان يداً خضراء، ولسان صدق ومحبة، ودعوته إلى مبادئه كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، «كما أرشده ربه إلى ذلك». إن التوسط في شتى أمور الحياة مطلب تمليه النفوس السوية، ويتحراه أصحاب العقول الراجحة، إذ الملاحظ دائماً أن معظم عيوبنا الاجتماعية التي نشكو منها إنما هي نتيجة حتمية للمغالاة في أمور لو عولجت بقصد واعتدال لتحولت إلى فضائل بذاتها، ولكن المغالاة فيها سرعان ما تقلبها إلى نقائص، وتنطبق هذه النظرية على مناحي شتى في الحياة الإنسانية، في المعيشة، والنسل، والأفراح، والأحزان، والحدة، واللين، والحب، وما إلى ذلك.

دوافع التطرف:

لا شك أن العصر الحديث عصر المتناقضات، وفي قمة ذلك ما نراه من التحضر من جهة، والبربرية من جهة أخرى، ولنأخذ مثالاً «التكنولوجيا» فقد أعطت للإنسان المعاصر حياة أفضل، ولكن في الوقت نفسه اشتملت بين طياتها على البربرية المدمرة لهذه الحياة، فانتفت صفة السعادة حينئذ، وتسرب القلق والتخوف إلى العقل الحديث، وبإمكان القلق أن يدفع صاحبه إلى التطرف، وحيث يتسنى لنا تفسير الدوافع التي حدت بالطلبة والشباب في أوروبا إلى الثورة على الأوضاع السائدة لديهم، والاتجاه للتطرف في الدين.

إنما تشكو منه بعض الأقطار العربية والإسلامية من موجات التطرف

التـــي أضحت تغمـــر مجتمعاتها بين حين وآخر.. إنمـــا ترجع إلى هوى في النفوس، ورغبة في لفت الأنظار.

كما يمكن أن تكون دوافع التطرف راجعة إلى ســـوء الفهم لمجريات الأمور فـــي مرافق الدولة، أو تعبيـــراً عن اتجاهات خفية، تحركهـــا أيد خفية ذات أغراض... وجميع هذه الدوافع بأوانها إنما هي أخطار محدقة بالعالم العربي والإســـلامي، بحيث تهدد ســـلامته وأمنه، فالحماس لدى الشـــباب وتطرفه يؤدي به إلى الانزلاق وراء المذاهب التي لا تتفق وواقعنا الإســـلامي، كما أن الغلاة والمتطرفين يتلقفون هذا الشباب لمآربهم المذهبية وأهدافهم السياسية، وليست هناك بيئة أشد ظلاماً من البيئة التي يعيشها الشباب المتطرف، وإن وجود أمثال هؤلاء في تنظيمات سرية يزاولون من خلالها أفكاراً غير شرعية أو ســـوية.. إنما يؤدي ذلك إلى تغلغل أفكارها لدى الشاب الجديد، من دون أن يتســـنى للمجتمع أن يناقش تلك الأفكار، ليســـتخلص منها الطيب وينبذ الخبيث، ولكن لو سألت نفسك أيها الشاب المؤمن هذا السؤال:

مـــن أين يأتينا التطرف العميق عموماً وديننا منه براء؟ لكان الجواب في بساطة ويسر: إن التطرف السائد بيننا الآن ما هو إلا ظاهرة سببها الرئيس قلة الثقافة، والفراغ الفكري لدى معظم الشباب اليوم.

أما التطرف الديني فما أحســـبنا نختلف في أن الغيرة على الإسلام أمر واجب، ولكن الانحراف به إلى التزمت والتصلب هو الذي يدعو إلى الغرابة، لأن معجزة القرآن الكريم. وهو عنوان الإســـلام. تجعله مسايراً لكل عصر، موائماً لكل جنس.

وعلى هذا، نستطيع أن نخلص إلى تشخيص داء التطرف عموماً لدى الشباب، فلنرجع تلك الظاهرة لديه إلى حرمانه من الثقافة الحقة والتربية الأصيلة، دينياً واجتماعياً وأخلاقياً وسلوكاً، أما ما تلقنه هذا الشباب من ثقافة، أو تزود به من زاد ديني، فإنما كان في قوالب جامدة، يعوزها المضمون العلمي المنهجي، الذي يساعد على تكوين الشخصية، ويضمن له الحصانة والمناعة ضد التيارات الفكرية الوافدة.

من زاوية أخرى، إذا نظرنا إلى التطرف كظاهرة موضوعية تقاس بالأرقام. كما هي وجهة نظر الرياضيين. فسيتبين لنا في كل أنشطة الحياة أن هناك علاقة رياضية واضحة بين مظاهر التطرف في الأمور الدنيوية وبين التطرف الفكري، بمعنى أن الأخير وليد الأول، فإذا استهدف المفكرون علاج ظاهرة التطرف الفكري بين مجتمعاتهم، فعليهم أن يبادروا أولاً إلى دراسة مدى التطرف في المجالات المعيشية والحاجات الأساسية للإنسان، كالتعليم والإسكان والدخول، إذ كلما تقاربت المسافات بين المستويات الدنيا والعليا قلت أو تلاشت حدة التطرف الفكري، وهذه إحدى القضايا التي تتبناها هيئة الأمم المتحدة، وخصوصاً في محيط الدول النامية.

التطرف في نظر الإسلام:

لا جدال في أن الأديان السماوية بعامة قد اتسمت في دعوتها باللين والحكمة، فهي لا تقر بحال أساليب الغلو والتطرف في الأفكار أياً كانت، والأنبياء عموماً كانت دعوتهم الناس إلى اتباع الدين ذات صبغة هينة لينة إيماناً من الرسل بأن الطبائع البشرية قد جبلت على النفور من أساليب

القوة والعنف، ولا سيما إذا كانت الفكرة لا عهد للمجتمع بها من قبل.

ونأتي إلى الدين الإسلامي، فنجد لديه الأسس الضرورية للوقاية من خطر التطرف، تبعاً لبدهية الوقاية خير من العلاج، فالقرآن الكريم قد اشتمل على آيات عدة في مواقف شتى تنهى عن الغلو والإسراف في أمور الدين والدنيا، فعلى سبيل المثال لا الحصر نهى الله تعالى في الآية ١٧١ من سورة النساء أهل الكتاب عن الغلو في الدين فقال: ﴿**لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق**﴾، كما نهى القرآن عن الغلو في تقديس الناس من الحكام أو غيرهم، واتخاذهم أرباباً من دون الله، فما بالنا والتقديس بين كثير من المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية قد شمل حتى الأموات، حيث الأضرحة والقباب شرقاً وغرباً؟

ومن المواقف الحازمة للإسلام حيال المغالاة أيضاً، نهى القرآن الناس عن الغلو في الإنفاق أو في الحرص على المال ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ الإسراء:٩٢، كذلك نهى الله عباده عن تجاوز الحد في القصاص، حيث جعل لولي الدم حق القصاص، ولكن نهاه عن الإسراف في استيفائه بقوله تعالى: ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل**﴾ الإسراء:٣٣، وعلى هذا المنوال كان سلوك الرسول ﷺ، فقد روي عنه في هذا الصدد قوله: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، وهذا يتماشى مع القاعدة النفسية التي تقرر أن القليل المتصل خير من الكثير المنقطع، وبذلك لا يفوت الهدف من العبادة وهو الاستمرار، ولا يكون ذلك إلا بالاعتدال.

لقد همَّ نفر من صحابة الرسول ﷺ بترك طيبات ما أحل الله لهم، زهداً في الدنيا وطلباً للآخرة، بعد أن توجه ثلاثة منهم إلى منزل الرسول ﷺ، حيث استفسروا من زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها عن عبادته السرية، لما أخبرتهم بها تقالّوا . بطبيعة الحال . ما هم عليه من عبادة لا تذكر في جانب ما يقوم به النبي ﷺ نحو خالقه، صلاة وصياماً وقياماً، فما كان من أحدهم إلا أن نذر أن يصوم الدهر كله، وأما ثانيهما فقد أصر على قيام الليل كله، وأما ثالثهما فقد التزم بألا يقرب النساء، فما كان من المصطفى ﷺ إلا أن نبههم إلى خطئهم ومغالاتهم في هذه الاتجاهات، وذكر لهم أنه شخصياً يصوم ويفطر، ويقوم الليل وينام، ويتزوج النساء، وهو من هو في درجته عند ربه ﷺ... محذراً في النهاية مَن يحيد عن ذلك بقوله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وحتى في جانب المعاملات نجده ﷺ ينهى عن الغلو، فقد أشار على من أراد أن يتصدق بجميع ماله أن يتصدق بالثلث وأردف قائلاً: «والثلث كثير»، وهكذا نرى شعار ديننا القصد والاعتدال في كل الأمور، سواء منها ما كانت له علاقة بين الإنسان وخالقه، أو ما كانت بين الناس مع بعضهم بعضاً، وعلى هذا المنوال كانت مسيرة رسول الله ﷺ وصحابته، لا غلو ولا تفريط ولا إفراط، حتى كان آخر عهد سيدنا عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، وحيث اعتنقت التطرف طائفة من الناس، متسترين خلف قاعدتي العدل والشورى المقررتين في الإسلام أساساً، فهؤلاء الذين أخذوا على الخليفة إيثاره لبعض ذوي قرابته بمال أو ولاية تغالوا في ذلك، وتطرفوا في محاسبته، وأدى بهم الأمر إلى أن استحلوا قتل الإمام الشهيد، مجافين بما أتوا أحكام الشريعة السمحة، ولم

يشفع لديهم ما وعدهم به الخليفة من بحث لمظالمهم، كما روى ابن قتيبة في كتابه «الإمامة والسياسة».

وهكذا عرفت الساحة الإسلامية منذ ذلك العهد ظاهرة التطرف، وتدرج في النمو بفعل الأهواء في الخلاف بين «علي ومعاوية»، وظهرت فئة الخوارج الذين كان ظاهرهم العبادة وباطنهم تشدد مقيت، وكان الدين منهم براء، وإلا فبم تفسر موقفاً من مواقفهم على سبيل المثال، فقد روي أن جماعة منهم لقيت الصحابي «عبدالله بن خباب بن الأرت» فأمَّنوه، ثم سألوه عن رأيه في «أبي بكر وعمر وعلي»، فلما لم يعجبه تطرفهم ونأى عنه في جوابه قتلوه أمام امرأته، ثم قتلوها هي الأخرى وهي في أتم أشهر الحمل!.

ما التدين؟

لا شك أن الدين هو الجانب الحيوي والفاعل من جونب التربية الشاملة للأفراد والشعوب، وتتجلي حقيقة الدين في قيمه المقننة أخلاقياً واقتصادياً واجتماعياً، تلك القيم التي تعطي للحياة معنى ودرجة من حيث علاقتها بالخالق سبحانه وتعالى.

هذا، وإن الإنسان ليعتبر في مركز المسؤولية الدينية عندما ينفذ ويقرر ويحكم على ألوان السلوك في ضوء هذا التكيف للدين، والإحساس بالحساب أمام الله أساس التدين الحق، أما الإنسان غير المتدين فهو الذي يغلب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وهو الذي لا يعير القيم الدينية التفاتاً، كذلك يقيد الدين جوهره إذا ما أصبح في حياتنا العامة على هامشها، ولا يبقى لنا منه سوى الرسوم والطقوس والتشريعات الشكلية، فيصير غاية

في حد ذاته، مع أن المفروض فيه أن يكون وسيلة بمواده وأحكامه لسعادة الإنسان في الدارين.

وهكذا ندرك أن الوظيفة الخاصة المتميزة للدين، تتجلى في أنه يخلق نوعاً من المواجهة بين السلوك الفعلي وبين القيم الأصلية، ومن خلال إعادة وتصحيح المواقف نرى الدين يمد الإنسان بما هو «ثابت» في صميم الواقع المتغير، وبالباقي في غضون الحائل الفاني، وبالهادي المكين في المعترك الصاخب المتزعزع، ومن هنا كان الغذاء الديني الصالح هو المادة الوحيدة التي تكفل ثبات النفس وأمنها واستقرارها وطمأنينتها، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ الرعد:٨٢.

التطرف الديني:

كنا قد ألمحنا من خلال هذا البحث إلى أن التطرف في الدين في جانب الحق لا يتنازع فيه اثنان، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية كل مسلم قدر الاستطاعة، تبعاً للحديث الشهير «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إلخ...»، وإن حفاظ المسؤولية هو أهلية التكليف، من هذا قوله ﷺ: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته إلخ...»، وقد أفاضت المؤلفات وأسهبت في هذه المجالات وأشباهها، والحلال بيِّن والحرام بيِّن، وحقاً توجد بينها الشبهات، والمؤمن العاقل هو من يتقيها درءاً للفساد.

أما التطرف الديني لذاته، فهذا هو محل الملاحظة والاستنكار، وهذه الظاهرة إن دلت على شيء «فإنما تدل على الجهل بأحكام الدين والشرع، أو كرد فعل اجتماعي»، وفي هذا المجال نلمس المسؤولية مشتركة بين الأسرة

والمؤسسات التعليمية وجهات الاختصاص في الدول، وذلك تجاه الناشئة والشباب، بحيث ينبغي أن يعمل هؤلاء وأولئك في اتجاه متواز جنباً إلى جنب حماية لأبنائنا من السقوط في شباك التطرف، حيث يعسر العلاج ويعز الشفاء.

إن أفضل الوسائل للوقاية من التطرف الديني هو أن يتوافر الإرشاد لأحكام الشريعة من لدن رجال الجامعات الغيورين على شباب الأمة مشرقاً ومغرباً، فينزلوا بكل ثقلهم بالتنسيق مع كبار رجال الدين والمسؤولين عن الدعوة، بين الجماهير وعلى منابر الجامعات، وأن تفسح الدولة لهؤلاء المرشدين في أجهزة الإعلام بأنواعها، كما يأخذون بأيدي الجماعات الدينية التي تتكون من أجل أهداف سامية، فلا شك أن هذه التكتلات الإسلامية ستشعر بإسهام المسؤولين عن الإرشاد الديني في الدولة بنشاطهم وقربهم منهم، ورعايتهم لهم، وهكذا لا يكون حينئذ مجال للانحراف أو التطرف الممقوت، إذ من المسلم به أن الإنسان متى أحاط علماً وبقدر واف بأحكام الشرع فإنه لن يلجأ إلى التعدي على حقوق الآخرين في العرض أو البدن أو المال، كما أنه سيتسلح بفضيلة التسامح، ويتحلى بأسلوب الحكمة في الدعوة إلى سبيل الحق والإيمان.

إنه لا خلاف في أنه ينبغي لنا كأمة إسلامية لها أصالتها ومقوماتها أن تأخذ من تلك الحضارات الوافدة ما يوائم ويساير أصولنا ومقومات ديننا، وبما لا يحدث تخلخلاً في مجتمعاتنا، أو يصبح طفرة لا تتسنى استساغتها، وهكذا ينبغي للدولة أن تتدخل بالقدر الذي يصحح مسار الفكر الإسلامي، وأن تدافع عن أسسه نصاً وروحاً، حتى نضمن أن يكون شبابنا بمنأى عن

كل القوى الخفية التي تدفعه بالأفكار المستوردة الهدامة، وحيث تتخذ من هذا الشباب البريء وسيلة لبلوغ أهداف سياسية أو اقتصادية، «وخصوصاً أن تلك الأيدي التي تلعب بأفكار أبناء الأمة في الظلام غالباً ما تكون عميلة لقوى أجنبية عن مجتمعاتنا»، الأمر الذي يوجب في هذه الحال على المسؤولين القيام بالتشريعات الحازمة، مع صياغة الضوابط التي تحكم وتنظم العمل السياسي، بحيث تبقى السيادة للقانون.

كذلك، فإنه على المؤسسات التعليمية أن تراجع حساباتها تجاه المؤلفات الدراسية الخاصة بالتربية الدينية التي تخلو في معظمها من المضمون الفعلي الإيجابي الحركي الذي يشكل الشخصية، والتي تكاد تتفق - فيما اشتملت عليه - على أن المادة فيها وسيلة وغاية نهائية في آن واحد، بحيث كانت الثقافة والتربية التي أتيحت للطلاب والشباب بهذا الأسلوب خالية تماماً من دعامتين مهمتين في حياة الأمة، أولى الدعامتين «كنه الدين وعلاقته بالتجارب الفعلية، والأخرى تتعلق بطبيعة وأهداف التربية ذاتها».

وليست «بعض المؤلفات في مادة الفلسفة في دور التربية بأقل خطراً من المؤلفات الدينية، إن لم تكن أكثر»، فعلى ذوي الاختصاص من رجال التعليم . ومن مواقع مسؤولياتهم . أن ينتبهوا للخطر الداهم من وراء هذه الأفكار التي تتضمنها تلك المؤلفات الفلسفية، والتي هي في حاجة إلى غربلة دقيقة، بمعرفة ذوي الغيرة على مستقبل شباب أمتنا الإسلامية، وأن ذلك ليستتبع . بطبيعة الحال . انتقاء العناصر الوطنية التي تطمئن لها الدولة في التصدي لتدريس تلك المواد التي يتوقف عليها بناء الناشئة والشباب، ضماناً لمستقبل أسعد وغد أفضل.

شروط ضرورية لأي تغيير أو بناء حضاري (*)

إبراهيم نويري- الجزائر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٧٠ ص٤٢.

كلمــة الحضارة كلمة مختصرة لمنظومة دقيقة تنتظم عالم الأفكار وعالم الأشــخاص وعالم الأشياء... بمعنى أنه إذا كانت هناك علاقة صحيحة بين هــذه العوالم الثلاثة انبثقت حضــارة صحيحة كذلك، وكلما اختلت العلاقة بين جوانب هذه المعادلة لدى أي أمة من الأمم اضطرب وضعها العام وساد القصور وضعف الأداء مختلف مناحي حياتها.

ومع شدة حساســية وأهمية جميع أجزاء هذه المعادلة، التي لها صرامة ودقــة المعــادلات الرياضية، غير أننا مع ذلك نميل إلــى الاعتقاد بأن عالم الأفكار هو ســرُّ فهم بقية جوانب المعادلة، فالأداة التي بها نقدر مثلاً قيمة شــيء من الأشياء، أو أهمية شخص من الأشــخاص إنما هي الفكر نفسه، إذن بإمكاننــا الذهاب إلى أن عالم الأفكار مظهــر بارز من مظاهر الوجود البشــري وصيرورة الحضارة الإنسانية، وهو كذلك جوهر أصيل وعميق من كينونة الإنســان، أي أنه وفق الصياغة الشــرعية: منــاط التكاليف ومعيار تقدير المآلات، ووســيلة توجيه وتهذيب التقاليد والعلاقات العامة سواء تلك التــي تحدد ضوابط وحدود الارتباط بين الخالق والمخلوق، أو بين المخلوقين بعضهم ببعض، وما يحيط بهم من ظروف ومتغيرات [1]، وأحسب أن إحداث النهضــة والإقلاع الحضاري - بتعبير «مالك بن نبي» - رهن شــروط وآليات وتوافقات كثيرة، قوامها أو أساســها أســلوب أو منهج التفكير نفسه، ومدى ما يكتنفه من فاعلية وشــحذ للهمم والطاقات والقدرات المذخورة في عالمي الأشخاص والأشياء.

١- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فصل: المجتمع والأفكار.

شروط الإقلاع الحضاري:

إذن نفهم مما تقدم أن التغيير داخل حركية أي مجتمع، أو في واقع أي أمة من الأمم لا يأتي جزافاً، أو كما اتفق، أو أنه ضرب من ضروب التخبط العشوائي، أو العمل الفوضوي الموسوم بالعجلة وقلة البصيرة، بل هو في حقيقته نسق يقوم على معادلة دقيقة جداً لخصها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم**﴾ الرعد:١١.

ونحاول هنا تقديم هذا التصور عن أهم تلك الشروط والآليات التي نرى أن الآية الكريمة سالفة الذكر تتضمنها، أو تنبهنا إليها على أقل تقدير، وهي:

١ - تحقيق الذات:

أي جعل الهوية الحضارية للأمة منطلقاً رئيساً. أي من الناحية المعيارية والتقديرية. لأي نشاط أو تحرك أو إنتاج، أو لأي مشروع داخل الحراك الاجتماعي للأمة، وقد سُمِّي هذا المنطلق بأسماء وأوصاف تعبيرية كثيرة، وإن كان المضمون واحداً هو هو لا يتغير، فهو مثلاً المذهبية أو الشِّرعة عند كل من الدكتور «محمود أبوالسعود»، والدكتور «عمادالدين خليل»، والدكتور «محسن عبدالحميد»، وهو فكرية الأمة عند الدكتور «محمد عمارة»، وهو الذات الحضارية عند «مالك بن نبي»، و«علي شريعتي»، و«محمد إقبال»، وهو أيضاً الأيديولوجيا أو الفكر عند مفكرين إسلاميين آخرين.

إنه مهما تباينت صور الألفاظ واختلفت رسوم التعابير عن هذا المعنى، فهو من باب التجوُّز في التعبير. كما يقول علماء اللغة. فالمهم، بل الأهم

هو أن تتحق فعلاً هذه الذات الحضارية في الممارسة الواقعية لشؤون الأمة كافـــة، وأن يكون واقعها الحي المعيش انعكاســاً وتعبيراً صحيحاً عن جوهر ذاتها المستقلة المتفردة: وأن تصبح هذه الذات خلفية معيارية موجهة للسلوك الاجتماعـــي والاقتصادي وللمنجزات والأعمـــال والعلاقات بين أفراد الأمة نفســـها أو بـــين الأمة وبقيـــة الأمم الأخرى التي ترتبط معهـــا في علاقات مصالح ومنافع أرضية مادية.

وفي نظري أو تقديري أن هذا الشرط تحديداً له فرادة خاصة بين بقية شـــروط الاستنهاض أو الإقلاع الحضاري، فهو إلى جانب كونه يحقق معنى وقسمات التميز والاستقلالية لشخصية الأمة ونسقها الفكري والاجتماعي والتربوي... فإنه كذلك عنصر تعضيد وتقوية يدعم اتجاه الثقة بالنفس لدى كل دوائر الأمة ومؤسساتها الفاعلة.

وقد أدركت دوائر الاســـتعمار والإلحاق الحضاري في المؤسســـة الغربية خطورة فلسفة العودة إلى الذات، فراحت تعمل وتخطط في اتجاه الحيلولة دون انتشـــارها والوعي بأبعادها ومقاصدها... يقـــول المفكر الدكتور «علي شريعتي»: «اليوم وقد أخرج الغرب كل البشر من قواعدهم الذاتية والثقافية، ومن قدرتهم على التوالد الذاتي والانفعال الداخلي وجعلهم في صورة عبيد محتاجين أذلاء ضعفاء متلصقين ومقلدين... ما الذي ينبغي عمله؟ الشـــعار الذي طرحه المفكرون في الخمســـة والعشـــرين عاماً الأخيرة كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار هو: العودة إلى الذات»[1].

١- علي شريعتي، العودة إلى الذات، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٨٦م، ط١، ص ٢٤ . ٣٤.

٢- العناية بالمنهج الفكري:

يعتقد اليوم معظم المفكرين المسلمين والباحثين في اجتماع المجتمعات الإسلامية، بأن جوهر الأزمة في الواقع الإسلامي هي المسألة الفكرية والثقافية... أي أن هناك مشكلة في المنهج... إذ إن عملية التوجيه الفكري من أعوص المشكلات التي تعترض النهضة والتنمية والتغيير داخل تطور أي حراك اجتماعي، أو في بوتقة أي صيرورة حضارية، وذلك لارتباط هذا الجانب بعالم القيم، أو المناحي المعنوية ذات الدلالات والأبعاد المتشابهة والمعقَّدة... ومن ثم فهي عملية تقتضي مهندساً بصيراً بالبناء الفكري وإعادة صياغة وترتيب الأفكار، ولعلنا نذهب هنا إلى أن هذه هي دوائر ومساحات الاجتهاد التي تنصبُّ عليها جهود حركات التجديد الفكري والإصلاح الاجتماعي والاستنهاض الحضاري.

وعملية توجيه الأفكار تستهدف أساساً تنظيم الحركة الاجتماعية وحسن توزيع الأدوار واستثمار الطاقات والأنشطة المختلفة لصالح البناء المنهجي الحضاري للأمة، وحل المعضلات المختلفة القائمة في واقع الأمة، ومجابهة التحديات التي تستهدف تعويق الأمة عن الانطلاق والتقدم، إذ ليس يكفي أبداً في هذا الصدد أن ننتج أفكاراً، بل يجب . وهذا هو الأهم . أن نوجهها طبقاً لمهمتها الاجتماعية المحددة، أو التي نريد تحقيقها . كما يعبِّر المفكر الجزائري «مالك بن نبي».

إذاً من الضروري والمنطقي . وهذا من مقتضيات المنهج . «الربط بين (الاجتهاد) ومعدل (حركة الفكر الإسلامي) المعاصر القادر على إيجاد حلول للمشكلات والقضايا المعاصرة التي تواجه المجتمعات المسلمة، والقادر على

إبداع البدائل لما يسود تلك المجتمعات من أنظمة وافدة اجتثت من فوق أرضها لتزرع في أرض الأمة الإسلامية عنوة وقسراً... فبقدر الجهد المبذول في البحث عن حلول معاصرة للقضايا التي تجثم على صدر الأمة الإسلامية بقدر ما يزيد معدل الحركة الفكرية في المجمعات المسلمة»[1]... إن المنهج الفكري الصحيح، المتماهي مع ذات الأمة ومكوناتها الروحية والحضارية، هو الأداة المنطقية المناسبة حقاً لإعادة الصياغة والبناء، وتجاوز السلبيات والمعوقات، أو هو بعبارة أوضح المدخل الوحيد المحقق للتغيير المنشود.

٣ - شحذ الفاعلية الفردية والجماعية:

ونقصد بالفاعلية هنا التجاوب النفسي والكياني كله الذي يفجِّر الإرادة ويضبط التوازن الاجتماعي الفردي.. فالفاعلية حال نفسية ترفع الهمَّة وتضاعف العطاء والنفع سواء على مستوى الفرد نفسه أو على مستوى الجماعة أو الأمة، أو هي باختصار قدرة الإنسان على تحويل الطاقة المودعة فيه إلى عمل نافع بأمثل الطرق وأفضل الأساليب المتاحة له في عصره[2] وهناك أمثلة كثيرة عن حقيقة الفاعلية في سيرة رسول الله ﷺ والسلف الصالح، فالخليفة العظيم «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وصفت حياته بعد إسلامه بأنها حياة فاعلة. لها مردود ملموس ومؤثر. بالرغم مما أُثر عنه من قلة الحفظ واستيعاب النصوص، وعمار بن ياسر رضي الله عنه، الذي كان يقوم بجهد عاملين اثنين في أثناء بناء أول مسجد في الإسلام وهو مسجد «قباء»، حتى قال له رسول الله ﷺ بعد أن لاحظ فاعلية «عمار» رضي الله عنه:

١- محمود سفر، ثقب في جدار التخلف، دار الصافي للثقافة والنشر، الرياض، ١٩٨٩م، ط١، ص١١٠

٢- سيد دسوقي حسن ومحمود سفر، ثغرة في الطريق المسدود، دار آفاق الغد، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٥٩.

«للنـــاس أجر ولك أجران»... إن هذه الفاعلية هي التي تنقصنا اليوم، وهذا أحد أسباب ضعف الأداء أو قلة الإتقان للأعمال والواجبات التي تُسند إلينا أو نُكلـف بها، فينبغي إذن أن نقتنع بأننا فعلاً «نحتاج في ســاعات الإقلاع الحضــاري إلى روحية اجتماعيــة عالية ومتوقدة وعاملــة... ذلك أن فترة «الإقــلاع الحضاري» تحتاج إلــى فاعلية روحية ضخمة أكبــر من أي فترة أخرى من فترات النمو الحضاري»[1].

٤ - الموازنة بين الإمكان والطموح:

لابد أن الرشد العقلي أو الفكري الحصيف، يقضي بضرورة العمل بمبدأ الموازنــة الدقيقة بين الإمكان والطموح، أي اســتغلال الإمكانات والقدرات المتوافرة بالفعل، وإقامة الخطط والمشــروعات والمناهج وفق تلك الإمكانات والقدرات، مع ضبط الطموحات والآمال والتطلعات، فإن حســن اســتغلال مــا هو موجود وقائم بالفعــل، أولى من التعلق بطموحــات وآمال قد تكون معطياتها ومقتضياتها بعيدة المنال.

انظر مثلاً إلى بعض الدول التي تتوافر لديها الإمكانات الزراعية الهائلة، من أراض خصبــة ومياه جوفية ومناخ معتدل ويــد عاملة مدربة، لكنها مع ذلك كله تتجه إلى الصناعة الثقيلة، التي لا تملك متطلباتها، وكان ينبغي أن تستغل أولاً الإمكانات القائمة في الواقع... وما ينتج من ذلك الإمكان القائم بالفعل من خبرة وقوة مادية هو الذي يقودها بعد ذلك إلى تحقيق طموحاتها في المجالات الأخرى.

١- المرجع نفسه، ص ٩٩.

فــي هذا النطاق كثيراً ما يقع الدارســون والمخططــون للتنمية والتغيير والبناء الحضاري في أخطــاء منهجية قاتلة، وخصوصاً عندما يلجأون إلى أســلوب المقارنة بين إنجازات شــعب ما بإنجازات شعب آخر، ومع أنه يصح الاســتئناس بهذا الأســلوب لأغراض علمية في أثناء التحليل المقارن المتعلق بدراســة مشــكلة التخلف، كأن نقول مثلاً: إن الشــعب الجزائري يســاوي ديمغرافياً عدد الشــعب الكندي، أو أن الشعب التونسي يماثل عدد الشعب الســويدي... أو كأن نقول: إن مســاحة «الجزائر» تعادل مســاحة «فرنسا» خمس مــرات كاملة، وأن مســاحة «تونس» تعادل مســاحة «هولندا» ثلاث مرات! بيد أن هذا الأســلوب الدراســي أو العلمي الــذي نذكره أحياناً في بعض دروس الجغرافيا، هو يقيناً غير أســلوب المقارنة بين منجزات شعبين من الشعوب، أو أمتين من الأمم.

فنحن إذا انتقلنا إلى مجال التقدم العلمي، أو مستوى الحياة والحضارة، وجدنــا البون شاســعاً بين «الجزائر وتونس» من جهــة، وبينهما وبين «كندا والسويد وفرنســا وهولندا»، إذن نســتطيع الذهاب إلى أن منجزات شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، إنما تقاس «بإمكانات وطموحات ذاك الشعب نفسه، أو تلك الأمة نفسها» وليس صحيحاً أن تقاس تلك المنجزات بمنجزات شــعب آخر، ذلك أن الإمكانات والطموحات لا تكون حينئذ متكافئة، فينبغي إذاً مراعــاة هــذا المبدأ كي نتجنــب الإحباط وضعف العزائم، في ســيرنا الحضاري المعاصر، ونحن نحاول تخطي سدود التخلف والتبعية التي بعثرها في طريقنا الاستعماري الغربي الحديث.

٥ - الاستقرار الاجتماعي:

يعتبر الاستقرار الاجتماعي، واستتباب الطمأنينة والأمن الداخلي، أبرز وأهم الأسباب التي تمد المشاريع الفكرية والبرامج التنموية بالدفع والقوة، بل إن عجلة التنمية لا يسعها أن تتقدم في غير جو الاستقرار والهدوء والتماسك الاجتماعي، وقد أدرك الإسلام هذا العامل وأثره البالغ في حركة التطور والنهوض والبناء الحضاري، فأولاه عناية خاصة، وشدد على تثبيت أسبابه وركائزه داخل البنية الاجتماعية العامة.

والدارس لأدبيات الإسلام الأساسية يلحظ في غير جهد أو مشقة، مدى اهتمام هذا الدين الحنيف بآليات التماسك الاجتماعي وأسباب تآزر وتكافل أفراد المجتمع المسلم، وأيضاً مدى مناهضته لكل ما من شأنه أن يخلق الفتنة بين صفوف المجتمع، أو ما يولِّد «الاستفزاز الاجتماعي» - حسب تعبير المفكر السعودي الدكتور «محمود سفر» - ذلك أن التفاوت في الأرزاق والمواهب سنَّة إلهية في الاجتماع البشري لكننا إذا لم نحسن التعامل مع هذه السنَّة، فقد ينجر عن ذلك ما لا تُحمد عقباه... فإن الله تعالى «خلق الخلق والتفاوت في أرزاقهم فبرز تبعاً لذلك التفاوت الاجتماعي» في المجتمع المسلم كوسيلة من وسائل العيش وتسيير دولاب الحياة بتسخير البشر لبعضهم بعضاً في ظل ألفة ومحبة وإخاء إنساني... لكن من الشروط الموضوعية لتحقيق الألفة والمحبة والإخاء الإنساني في المجتمع المسلم أن لا يبرز فيه «الاستفزاز الاجتماعي» وأسبابه التي نهى عنها الدين ورفضتها القيم والتقاليد الصالحة»[١].

١- محمود سفر، ثقب في جدار التخلف، مرجع سابق، ص ٧٥.

فلننظر إلى أي مدى تتجنب المجتمعات الإسلامية أسباب الاستفزاز الاجتماعي... وإلى أي مدى تعمل من أجل التماسك الداخلي؟!.

٦ - استيعاب حضارة العصر:

في العطاء الحضاري هناك ما هو خصوصيات أو بصمات ذاتية خاصة بأمة من الأمم، وما هو أيضاً مشترك إنساني عام، لذلك نشدد على أن المقصود باستيعاب حضارة العصر، إنما هو الجوانب الإنسانية العامة المشتركة، وخصوصاً منها ذات المنحى العلمي والتقني المحض، وينبغي كذلك أن ننبه إلى أن قضية استيعاب العصر وحضارته ليست مسألة بسيطة، بل هي تتطلب بدءاً كل الشروط المذكورة آنفاً... إنها باختصار شديد ليست «مقالاً يُكتب أو كتاباً يُنشر أو حديثاً يُذاع، أو خطبة تُلقى، أو بضاعة تُباع... لكنها معاناة وجهاد تُسهم فيه الأمة، بكل مؤسساتها ومعاهدها ومعاملها ورجالها، وتعقد عليها العزم للبناء والمثابرة، وتُسقط في سبيلها من حياتها مظاهر الترف والدعة والركون إلى الاستسلام والتواكل، حتى تستطيع أن تتهيأ لعملية الاستيعاب، وتقيم البناء الحضاري على عُمد ثابتة راسخة متينة».

مما تقدم نفهم أن هناك شروطاً صارمة ودقيقة، لابد من الوفاء بها، حتى نتمكَّن من بلوغ النجاحات المأمولة لمشروع أمتنا الحضاري، وبالتالي تحقيق انعتاق واستقلال ذاتها الحضارية بشتى مكوِّناتها وأبعادها، وخروجها النهائي من دائرة التبعية والإلحاق الحضاري للآخر.

• • • • • • • •

الغلو في الدين وأثره السلبي على حياة الفرد والمجتمع (*)

د.أحمد العمراني- المغرب

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٧٦ ص ٣٢ وعدد ٤٧٥ ص ٣٦

يقول الله تعالى في محكمة كتابه: ﴿**قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**﴾ المائدة:٧٧.

نص من وحي ربنا الكريم يحذر المسلم من أمر فشا وظهر، وعمَّ وانتشر، وهو الغلو والإفراط أو اتباع غير الحق، وهو آفة مندرجة ضمن سنن الله في خلقه وقدره في عباده منذ خلق آدم - عليه السلام - إلى أن تقوم الساعة.

فالإنسان مع بعثة الأنبياء لم يخرج عن طريق ثلاث في التعامل مع دعوتهم، فمن الناس من يتبع ومنهم من يفرط ويغفل، ومنهم من يتجاوز ويغالي.

وقد اصطلح الوحيان - كتاب ربنا وسنة نبينا - على هذه الآفة بمجموعة من الأسماء والمصطلحات منها: الإفراط والغلو والتنطع والتشدد وغيرها.

وهي مما يقتضي الحذر، ولن يتم ذلك إلا بمعرفتها ومعرفة ما ينبني عليها، وذلك بإلقاء بعض الضوء على مفهومها، وبيان بعض أسبابها وآثارها ليظهر لكل ذي عينين أو ألقى السمع وهو شهيد علاجها ودواءها.

فماذا نعني بالإفراط، أو باصطلاح الوحيين القرآن والحديث الغلو والتشدد والتنطع.

١ - حول تحديد المفهوم.

الإفراط والزيادة والغلو والتشدد والتنطع والتعمق، مصطلحات بعضها من بعض تصب كلها في تجاوز الحد والإفراط فيه[١]، ومخالفة مقاصد الشريعة وروحها المتميزة بالسماحة واليسر، قال تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ البقرة: ٥٨١، والمتميزة برفع الحرج لقوله

١- لسان العرب مادة غلا.

تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ الحج: ٨٧، فكل من شاد الدين غُلب كما في الحديث: «الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[١]، وفي رواية: «عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه»[٢]

كما تحدثت نصوص كثيرة عن التبشير والتيسير وعدم التعسير والتنفير منها قوله ﷺ في رواية «يسِّروا ولا تُعسِّروا وبشِّروا ولا تنفِّروا»[٣]، وفي لفظ آخر: «يسِّروا ولا تُعسِّروا وسكِّنوا ولا تُنفِّروا»[٤]، وبيَّن للمسلمين بأن الدين متين والإيغال فيه ينبغي أن يكون برفق فقال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»[٥]

وفي لفظ آخر قال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباده، فإن المنبت لا يقطع سفراً، ولا يستبقي ظهراً»[٦] وبأنه «ذلول لا يركب إلا ذلولاً»[٧]

وأمر بالتوسط في الأعمال فقال[٨]: «العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال أوساطها ودين الله بين القاسي والغالي، والحسنة بين السيئتين لا ينالها إلا بالله، وشر السير الحقحقة»[٩]

١- صحيح البخاري رقم: ٣٩، و٥٦٧٣، و٦٤٦٣، و٧٢٣٥.

٢- صحيح ابن خزيمة ج: ١٩٩/٢، ومسند أحمد رقم: ٩٨٨٩، ورقم: ٢٣١١٥، ورقم: ٢٣٢٠٥.

٣- صحيح البخاري كتاب العلم باب ١١ رقم: ٦٩.

٤- صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب ٣ رقم: ٤٦٢٦.

٥- مسند أحمد ١٣١١٨، وتفسير الدر المنثور للسيوطي: ٤٦٥/١.

٦- شعب الإيمان للبيهقي: ٤٠٢/٣.

٧- الحقحقة: تعني المتعب من السير، أو تحمل الدابة على ما لا تطيقه، فيض القدير: ٣٨٦/٤.

٨- صحيح البخاري باب الدين يسر رقم: ٢٨.

٩- صحيح البخاري، ومسند أحمد: ٢١١٣، وأيضاً بنحوه انظر الأدب المفرد: ١٠٨/١، والهيثمي في مجمع الزوائد: ٢١٤/١، والطبراني في الأوسط: ٢٢٩/٧.

- كما بيَّن سماحة الشريعة قولاً وفعلاً حيث روت عائشة قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر زفن الحبشة حتى كنت التي مللت وانصرفت عنهم قالت: وقال يومئذ: لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، أي أرسلت بحنيفية سمحة»[١]، وقال ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[٢]

وهو ما ذهب إليه السلف الصالح حيث روي عن الحسن قال: «إن دين الله وضع دون الغلو وفوق التقصير»[٣] كما روي عن علي بن أبي طالب قوله: «خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي»[٤]

والغلو شر كله أي لا خير في قليله ولا في كثيره، وهو ضلال مبين كما روي عن حذيفة قال: يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً فإن أخذتم يميناً وشمالاً، لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»[٥]

- والغلو مفرِّق بين الجماعة، ومشوِّه للدين الحنيف.

وقد فقه السلف الصالح خطورة هذه الآفة فحذروا منها حيث يروى عن ابن مسعود أنه قال: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقواماً يزعمون أنهم أعوانكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم وإياكم والتبدع وإياكم والتنطع وإياكم والتعمق وعليكم بالعتيق»[٦]

١- كتاب الزهد لابن أبي عاصم: ٢٨٢/١، وكتاب نوادر الأصول في أحاديث الرسول: ١٦٧/١.

٢- مصنف ابن أبي شيبة: رقم الأثر: ٣٤٤٩٨.

٣- صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب باب ٢ رم: ٢٨٢٧.

٤- سنن الدارمي باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع: ج: ٦٦/١.

٥- تفسير ابن كثير: ٨١/٤.

٦- صحيح البخاري رم: ٧٩، وصحيح مسلم رقم: ٦٠٩٣.

٢. الأسباب الموقعة في الغلو

ووقوع هذه الآفة في المجتمعات أمر ذكره التاريخ وذكرته التشريعات السماوية وشاهدته وتشاهده الأعين البشرية، كما عانت من مشكلاته الإنسانية ومازالت تعاني منه إلى اليوم. وله أسباب يتعلق بعضها بسلوك بعض الأفراد، كما يتعلق البعض الآخر بتصرفات المجتمع ككل.

ومن بين هذه الأسباب ما يلي:

١. ضيق أفق التفكير وسوء التأويل:

فالناس يتفاوتون في صورهم وأشكالهم، وهم أشد اختلافاً في مواهبهم وقدراتهم وميولاتهم وطبائعهم.

وقد كان لهذا التفاوت تأثير كبير في اختلاف العلماء، فمنهم من كان ذا قدرة عظيمة على الحفظ والفهم، وآخرون في الحفظ أكثر من الفقه، وآخرون فقههم أجود من الحفظ، وقد ضرب الله لنا مثلاً في كتابه لهذا النوع من التفاوت في العقل والحفظ، فقال: ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها**﴾ الرعد: ٧١.

قال ابن كثير في تفسيرها: «أنزل من السماء ماء» أي: مطراً «فسالت أودية بقدرها» أي أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عليها»[١]

١- سنن أبي داود رقم الحديث: ٣٦٦٠، وسنن ابن ماجه: رم: ٣٠٥٨، وسنن الترمذي رقم: ٢٦٦٦، وسنن الدارمي: ٨٦/١، وصحيح ابن حبان رقم: ٦٦ و٦٩، ومسند أحم رقم: ١٣٤١٨.

وزاد الرسول ﷺ بيان هذا التفاوت في حديثه الرائع حيث قال: «إن مثل مـا بعثني الله من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشـب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس، فشـربوا ورعوا وسـقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله بما بعثني به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به»[1] فالهدي والعلم كالمطر، والناس كالأرض.

- **فالقسم الأول:** مـن الأرض مضـروب للمؤمنين العلمـاء الفقهاء، الذين يستفيدون من علمهم وينفعون الناس.

- **والقسم الثاني:** مضروب للمؤمنين المهتدين الحفظة للدين وفقههم قليل.

- **والقسم الثالث:** مضروب للذين رفضوا الهدى والعلم وقد ثبت في حدث آخـر أنه قال: «رب حامـل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»[2]

وقـد وقع التفاوت فـي العلم والفقه بين العلماء الكبـار، بل ووقع أيضاً بين الأنبياء، قال تعالى: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً**﴾ الأنبيـاء: ٨٧. وخلاصة ما قاله أهـل العلم أن نبي الله داود قضى

١- تفسير ابن كثير: ٥٧٨/٤.

٢- المسـتدرك على الصحيحين للحاكم: ١٦٤/٢ / ٢٦٥٦، وصححه الذهبي، وأخرجه أبونعيم في الحلية: ٣١٨/١، وعبدالرزاق: ١٥٧/١٠، و١٦٠/١٠، وابن أبي شـيبة: ٥٥١/٧ / ٣٧٨٧٣ والسـيوطي في الدر المنثور: ٥٢٧/٢.

لأصحاب بستان رعته أغنام قوم ليلاً في وقع نضج عناقيده وثماره، فأفسدته وأذهبت ثمره، قضى بالغنم لأصحاب البستان، فلما علم سليمان قال: لو كان الأمر لي لقضيت بغير هذا، فدعاه داود لما علم بقوله، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها»[1]

- ومن الأمثلة الموضحة لهذا السبب، ما وقع لبعض الطوائف «الحرورية» من سوء فهم لمجموعة من النصوص الشرعية، أدى بهم إلى سوء السلوك وغريب الأحكام، مما جعل ابن عباس يتعامل مع هذا الأمر بالحكمة والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ليصل إلى المطلوب المتمثل في حسن الإفهام والإقناع والتصحيح.

- فعن ابن عباس قال: لما اعتزلت الحرورية قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد عني الصلاة لعلّي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إني أتخوفهم عليك، قال: قلت كلا إن شاء الله، فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أر قوماً قط أشد اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثفن إبل، وجوههم مقلبة من آثار السجود، قال: فخلت: فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم على أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم لا تحدثوه، وقال بعضهم لتحدثنه قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله وختنه، وأول من آمن به وأصحاب رسول

١- طبقات الحنابلة: ١/٢٦٤.

اللـــه معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثاً، قلـــت: وما هن؟ قالوا: أولاهن أنه حكَّم الرجال في دين الله وقد قال الله عز وجل: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾، قال: قلت وماذا؟ قال: قالوا: قاتل ولم يســـب ولـــم يغنم لئن كانوا كفاراً لقد حلَّت له أموالهـــم، وإن كانوا مؤمنين لقد حرِّمت عليـــه دماؤهم، قال: قلت: وماذا؟ قالوا: ومحا نفســـه عن أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، فقال: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من ســـنة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أما قولكم إنـــه حكَّم الرجال في دين اللـــه فإنه يقول: ﴿**يأيها الذين آمنـــوا لا تقتلوا الصيـــد وأنتـــم حرم ومن قتلـــه منكم متعمداً فجـــزاء**﴾ إلى قوله: ﴿**يحكم بـــه ذوا عدل منكم**﴾ وقـــال في المرأة وزوجها: ﴿**وإن خفتم شـــقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها**﴾ أنشـــدكم الله، أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفســـهم وصـــلاح ذات بينهم أحق أم فـــي أرنب ثمنها ربع درهـــم؟ فقالوا: اللهم في حقن دمائهـــم وصلاح ذات بينهم، قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم إنه قاتل ولم يســـب ولم يغنم؟ أتســـبون أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليســـت بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإســـلام، إن الله عز وجل يقول: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفســـهم وأزواجـــه أمهاتهم**﴾ فأنتم تتردون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم محا نفســـه من أمير المؤمنين فإن رســـول الله دعا قريش يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رســـول الله، فقالوا، لو كنا نعلم أنك رســـول الله ما صددناك عـــن البيت ولا قاتلناك، ولكـــن أكتب محمد بن عبدالله، قـــال: والله إني لرســـول الله، وإن كذبتموني أكتب يا علي، محمد بن عبدالله، فرسول الله

كان أفضل من علي أخرجت من هذه قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفاً وبقي أربعة آلاف فقتلوا»[1]

ومن القضايا البارزة التي أثارت فتنة كبرى في زمن العباسيين قضية خلق القرآن، حيث عُذب فيها أناس وسُجن آخرون منهم الإمام أحمد، وقد حاول رضي الله عنه بحواره وفكره أن يدحض حجج المعتزلة في حوار جميل مقنع مع المعتصم، حيث قبض المعتصم على الإمام أحمد وسجنه، ثم استدعاه وسأله كيف كنت يا أحمد في سجنك البارحة؟ فقال: بخير والحمد لله، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمراً عجباً، قال له: وما رأيت؟ قال: قمت في نصف الليل فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين فقرأت في ركعة الحمد لله، وقل أعوذ برب الناس، وفي الثانية الحمد لله وقل أعوذ برب الفلق، ثم جلست وتشهدت وسلمت ثم قمت فكبرت وقرأت الحمد لله وأردت أن أقرأ قل هو الله أحد، فلم أقدر، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في زاوية فإذا القرآن مسجى ميتاً فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته فقال له: ويلك يا أحمد والقرآن يموت، فقال له أحمد: فأنت كذا تقول إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت، فقال المعتصم: قهرنا أحمد»[2]

٢. قلة الفقه أو ضعف الفقه بالتنزيل:

ونعني بذلك قلة العلم عند من وقع في هذه الآفة، فدين الله فسيح، وفقهه مرن، شامل لكل الأشخاص والأمكنة والأزمنة، وكثيرة هي العلوم التي

١- صحيح البخاري كتاب الدعوات باب ١ رقم: ٦٣٠٤.

٢- الإتقان للسيوطي: ٢/٩ و٢/٤٨٠.

ينبغـــي لمن يطلب فهم كتاب الله الاطلاع عليها، مـــراد الله لا يفهمه كل من هب ودب، نعم روي عن ابن عباس «أن القرآن على أربعة أنحاء قسم استأثر الله بعلمه، وقسم يعلمه العلماء، وقسم يعلمه أهل اللغة، وقسم لا يعذر أحد بجهله وهو قسم الحلال والحرام»[1]

فكم من متجرئ على كتاب الله لا يفهم سبب النزول ولا الناسخ والمنسوخ ولا العام والخـــاص ولا المطلق والمقيد، بل إن كثيراً من الناس يجهلون الأمر المشـــروع المسنون الذي جاء به الشارع من خلال ما أنزل من نصوص قرآنية أو تبين بالنصوص الحديثية، حيث كان هذا النقص المعرفي من أكبر الأدواء التـــي أصابت بعض الفـــرق الكلامية كالخوارج ومن يؤمـــن بفكرهم في كل الأزمنة، فإن اختلافهم ووقوفهم ضد الصحابة كان بسبب قلة زادهم المعرفي وجهلهم أيضاً بدلالة النصوص وبأحاديث الرسول ﷺ، وقد وصفهم الرسول ﷺ: «يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[2]

وفي رواية مسلم وصف دقيق لسلوكهم وأفعالهم وما يلزمهم من مواجهة، حيث روي عن أبي ســـعيد الخدري قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بدهبة في ثربتها إلى رســـول الله ﷺ فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر الأقرع بن حابـــس الحنظلي وعيينة بن بدر الفزاري وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب وزيد الخير الطائي، ثم أحد بني نبهان، قال فغضبت قريش فقالـــوا: أتعطي صناديد نجد وتدعنا، فقال رســـول الله ﷺ إني إنما فعلت

١- صحيح البخاري رقم: ٧٤٣٢، وصحيح مسلم كتاب الزكاة باب ٤٧، رقم: ٢٤٩٦، ٢٥١١.

٢- صحيح مسلم كتاب الزكاة باب ٤٧ رقم: ٢٤٩٩.

ذلــك لأتألفهم فجاء رجل كث اللحية مشــرف الوجنتين، غائر العينين ناتئ الجبــين محلوق الــرأس فقال اتق الله يا محمد، قال فقال رســول الله ﷺ فمن يطع الله إن عصيته أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني، قال ثم أدبر الرجل، فاســتأذن رجل من القوم في قتله يرون أنــه خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ إن من ضئضئ هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإســلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإســلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[1]

هذا واحد من رواد التدين الســطحي، رجل كــث اللحية، محلو الرأس، مشــمر الإزار، وهو ضئضــي أي أصل فئات يتبعون ســنته يتلون كتاب الله رطباً أي سهلاً لكثرة حفظهم، ولكنهم إذا لاحت لهم شهوة من شهوات الدنيا تجردوا من الــذوق والأخلاق، وقفزوا عليها ومرقوا من الدين، وهي ظاهرة مكرورة، حيث يبرز من يشــعل المعارك حول الأشــكال والمظاهر، ومن يفتعل الورع حول الخروج والدخول ومن إذا صلى بجانبك شغلك عن صلاتك.

٣ - ضعف الفهم لفقه التغيير

كثير من الناس عندما يقرأون الإسلام، ويستمعون لبعض نصوص الشريعة، يؤمنون بها أشــد الإيمان، فيبحثون عن تمثلها في أنفســهم وواقعهم، لكنهم يصادفون واقعاً آخر، واقعاً يعارضهم في أفهامهم، ويعارضهم في تصرفاتهم، فيرغبون في التغيير ويسعون له دون فهم لأولويات هذا التغيير.

١- صحيح مسلم كتاب الإيمان: ٧٨ ج: ١/٦٩.

كل الناس يقرأون حديث النبي الأمين: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[1]

ولكن لا يعرفون كيف يغيرون ولا كيف يتعاملون مع النصوص الشرعية وتنزيلها، فتغيير المنكر يقتضي شروطاً ما أحوج المسلم أن يفقهها ومنها:

١ - **أن يكون المنكر متفقاً على إنكاره:** لثبوته بالكتاب أو السنة، بحيث لا يكون إنكاره محل خلاف بين أهل العلم الموثوق بهم من ذوي الاختصاص والتقوى، فإذا كان محل اجتهاد واختلاف فليس مما يجب على الأمة تغييره.

وكل ما أدى إلى منكر محقق هو نفسه منكر يجب تغييره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»، وقال: «يؤمر بالمعروف بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، وينهى عن المنكر بحيث لا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه»[2]

٢ - **أن يكون المنكر موجوداً متيقناً:** ولذلك قال الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً».

٣ - **أن يكون المنكر بواحاً ظاهراً:** لا يحتاج اليقين بعلمه إلى تفتيش وتجسس وسواء في هذا أن يكون ظهوره بذاته أم بما اقترن به من صوت أو لون أو رائحة، فكل منكر دلت عليه آياته ولوازمه هو من المنكر الظاهر الذي

١- الحسبة في الإسلام: ٦٤ . ٦٨.

٢- سنن أبي داود رقم: ٤٨٨٠، ومسند أحمد رقم: ١٩٨٧٦.

يجب تغييره.

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» [1].

قال عبدالرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهو الآن شرب فما ترى؟ قال: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم»[2]

وقال أبو قلابة: حدث عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبومحجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه»[3]

وثم منكرات لها الأثر السلبي الأكبر على الأمة من غيرها، كإشاعة الفتنة لتقويض هيبة السلطان المسلم، أو الخروج عليه، وكمنكر استراق أسرار الدولة لنقلها للعدو، وكمنكر التآمر على إفساد اقتصاد الأمة وثقافتها وعقيدتها وصحة أبنائها، والتآمر على إشاعة الفاحشة في الأمة، وغيرها...

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٦/٣٣٣.

٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٦/٣٣٣.

٣- صحيح مسلم كتاب الزهد رقم: ٧٦٦٥.

وليصح التغيير يقتضي ذلك توفر بعض الشروط ومنها:

أ - أن يكـــون التغيير إيماناً واحتســـاباً وابتغاء لمرضـــاة الله عز وجل، وليس تغييراً لعصبية قوميـــة أو لغوية أو حزبية أو تحقيقاً لهوى في النفس أو موافقة لما تحب، فإذا كان كذلك فهو منكر وجب تغييره.

أما التغيير الذي هو عبادة فإنما هو الخالص لوجه الله تعالى لا يبتغي به غيره: «... من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1]

ب - أن يكـــون التغيير موافقاً هدي الكتاب والســـنة ذلك أن كل عمل صالح أساسه أمران: إخلاص النية، وموافقة الشرع، لهذا قال سعيد بن جبير: «لا يقبـــل قول وعمـــل إلا بنية، ولا يقبـــل قول وعمل ونيـــة إلا بموافقة السنة»[2]

وهذا يستوجب معرفة أسباب المنكر المراد تغييره معرفة كاشفة، ومعرفة آثاره العاجلة والآجلة في الأمة، ومعرفة ما يحيط بوجود المنكر وانتشاره في الأمة من ملابسات وما يعيد على بقائه أو تجدده أو إغراء الناس بالانشغال به أو التلبس والتردي فيه، أو السكوت على أهله، أو إجلالهم أو الخوف من تغييره أو إنكاره.

ويســـتوجب معرفة ما يترتب على تغييره بأي ســـبيل من آثار إيجابية أو ســـلبية، والموازنة بين هذه الآثار كما يحســـن اختيار المنهج والزمان والمكان والمقدار الذي هو أنفع للأمة عند تغييره.

١- الحسبة في الإسلام: ٦٢.

٢- صحيح مسلم كتاب الطهارة باب ٣٠ رقم: ٦٨٧.

فالقصور في معرفة شـــيء من ذلك تكون فادحـــة، وإتقان معرفته تعين على حسن القيام به.

ج - أن يســـلك بالتغييـــر منهج التدرج والحكمة والحلـــم والرفق ليكون ذلك أنجع وأنجح.

- عن أنس بن مالك قال: بينما نحن في المســـجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المســـجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مهمه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه دعوه» فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المســـاجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنمـــا هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، أو كما قال رســـول الله ﷺ قال فأمر رجلاً من القوم فجا ءبدلو من ماء فشنه عليه»[1]

- وعن عائشـــة قالت سألت رســـول الله ﷺ عن الجدر أمن البيت هو قال نعم، قلت فلم لم يدخلوه في البيت قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة قلت فما شأن بابه مرتفعاً قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ولوا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن الزق بابه بالأرض»[2]

- وقد قام لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين غضبت من قولة اليهود له ﷺ: «الســـام عليكم، فقالت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول اللـــه ﷺ: «مهلاً يا عائشـــة إن الله يحب الرفق في الأمـــر كله، فقلت: يا رســـول الله، أيدخل في الرفق والحكمة هـــذا، ألا يكون ذلك في مواجهة

١- صحيح مسلم كتاب الحج باب ٠٧ رقم: ٣١٣٣.

٢- صحيح البخاري كتاب الأدب رقم: ٤٩٥٢/٨٧.

ومصارحة في ملإ من الناس، فإنها حينذاك تشهير لا تذكير، قال الشافعي: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»[١]

وقد جعل الله عقوبة من عير أخاه بذنب أن يقع فيه حيث قال ﷺ: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»، أي من ذنب قد تاب منه[٢]

خصوصاً إذا لم يكن من المجاهرين، فإن كان كذلك فقد وجب تغيير منكره ودفعه علانية، وفضح أمره وأفاعيله وصنائعه والأرجاف وإشاعة الفاحشة والسوء فإن الله تعالى حرم المجاهرين عفوه، فقد أخرج البخاري عن سالم بن عبدالله قال سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح ويكشف ستر الله عنه»[٣].

وليحصل التغيير المطلوب لابد من أن تتوافر في المغيِّر شروط وآداب وهي:

إذا كان تغيير المنكر عبادة يتقرب بها إلى اللّه فإنه يشترك مع بقية العبادات في بعض الفرائض.

- أن يكون القائم بالتغيير مكلفاً، وأساس التكليف العقل والبلوغ.

١- شرح النووي لصحيح مسلم: ١٤٢/١.

٢- صحيح الترمذي كتاب القيامة، رقم الحديث: ٠١٥٢.

٣- صحيح البخاري كتاب الأدب باب ٠٦ رقم: ٩٦٠٦.

- أن يكون مسلماً.

- ولا يشترط مع الإسلام العدالة، فكل مسلم يجب عليه تغيير المنكر على الوجه الذي هو أهلٌ له وليس بلازم أن يكون غير مرتكب للمنكرات، قال مالك عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لايكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر قال مالك: وصدق: من ذا الذي ليس فيه شيء» [1].

والأصل الاشتغال بتغيير منكر النفس قبل تغييره عند الآخر، فيروى عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يابن عباس: إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وماهي؟ قال: في الآية ٤٤ من سورة البقرة: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ احكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: تعالى في سورة الصف الآيتين ٢-٣: ﴿**لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون**﴾ أحكمت هذه قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام:﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت**﴾ هود - ٨٨ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فأبدأ بنفسك» [2].

ومثل هذا أيضا قوله: «يجَاءُ بالرَّجُل يَوْمَ القِيَامَةِ فيُلْقى في النَّار، فَيدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ برَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أهْلُ النَّارِ عَليْهِ، فيَقُولونَ أيْ فُلانُ، مَا

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٦٧ ٣، وذكره ابن كثير في تفسيره: ١/١٤٩

٢- تفسير ابن كثير: ١، ١٥٠، والدر المنثورللسيوطي" ١/١٥٨

شَأنُكَ أليْسَ كُنْتَ تَأمُرُنَا بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَن المُنْكَرِ قالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأنْهَاكُمْ عَن الْمُنْكَرِ وآتِيهِ» [1].

❖ شرط إذن الولي الأعلى أو من ينيبه لمن يقوم بتغيير المنكر.

إذ إن المسلمين اليوم يعيشون عصر المؤسسات وعصر التخصصات، فلا يعقل أن نستعين إلا بكهربائي لإصلاح عطل كهربائي، وإلى ميكانيكي لإصلاح عطب ميكانيكي، وفي المجال الديني والدعوي والإصلاحي يقوم كل من هب ودب للدعوة والتغيير، فلابد - وأمة الاسلام اليوم تعيش عصر المؤسسات وعصر الشورى والحرية - أن تستعين بذوي التخصص والخبرة والكفاءة للقيام بما يلزم، إذ كم من عمل قام به غير أهله كان وبالاً على صاحبه قبل غيره، كما أنه أدى إلى إذية ذلك لغيره.

ومنهج التخصص هذا وضعه رب العزة لعباده مستنبطا من قوله سبحانه: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾** التوبة «١٢٢»[2].

وطبقه على أرض الواقع رسول البشرية ﷺ وبينَّه ووجه إليه، حيث قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر اللّه عمر وأصدقهم حياء عثمان وأفضلهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد، وأقرؤهم لكتاب الله أُبَي بن كعب، ولكل قوم أمين وأمين أمتي أبو عبيدة» [3].

١- صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب ١٠ رقم: ٣٢٦٧

٢ - سورة التوبة:/ ١٢٢

٣- صحيح ابن حبان: ١٦/٧٥

وأخرج مسلم عن نَافعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ أنه لقي عُمَرَ بعُسْفَانِ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلهُ عَلى مَكَّة فقالَ من اسْتَعْمَلْت عَلَى أهْل الْوَادي فقالَ ابْنَ أبْزَى قالَ ومَنَ ابْن أبْزَى قالَ مَوْلَى منْ مَوَالِينَا قالَ فاسْتَخْلَفتَ عَليْهِمْ مَوْلَى قالَ إنَّهُ قارئٌ لكِتَابِ اللَّه عَزوَجَلَّ وَإنَّهُ عَالِمٌ بالْفَرائض قالَ عُمَرُ أمَا إنَّ نَبيَّكُمْ ﷺ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهَذَا الكِتَابِ أقوَاماً وَيَضَعُ به آخرين»[1].

ومن جميل الكلام في هذا قول إمامنا مالك يرحمه الله لما قيل له في العلم واختياره له: «إن اللّه قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، رب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه من دون ما أنت فيه، وأرجوا أن يكون كلانا على خير وبر»[2].

٢-٤ - العدول عن الرخصة

تعامل الشارع الحكيم مع البشرية المؤمنة بتشريعاته تعاملاً مرنا لينا، لأنه أعرف بهم وبمشكلاتهم وحاجاتهم وقدراتهم، ففي العبادات فرض فرائض وسنَّ سننا، لكنه أدرج أعذاره الشرعية ضمن كل نقطة من نقاطها رخصاً لمن عجز عن تنفيذها تنفيذاً كاملاً سليماً وكانت له أعذاره الشرعية. ومما روي عنه ﷺ: «إن اللّه يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[3]. وعند ابن خزيمة: «كما يحب أن تترك معصيته[4] وقال في رواية: «صدقة

١- صحيح مسلم صلاة المسافرين باب ٤٧ رقم: ١٩٣٤

٢- التمهيد لابن عبد البر: ٧/١٥٨

٣- صحيح ابن حيان ج: ٢/٦٩ رقم: ٣٥٤، وج: ٨/٣٣٣ رقم: ٣٥٦٧، المعجم الكبير: ١٠/٨٤ و: ١١/٣٢٣، وصحيح ابن خزيمة: ٣٧٨/٢/٧٣، ونقله السيوطي في تفسيره الدر المنثور:/١/٤٦٦

٤- صحيح ابن خزيمة:/١٠٢ج:٣/٢٥٩ .

تصـــدق بها عليكم الرحمان فاقبلوا صدقته»[1]. وفي رواية أخرى للطبراني قال: «إن الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه» [2].

- فشـــريعة الإســـلام مبنية على التيسير ورفع الحرج، وهذا لا يظهر إلا لمتمـــرس مع نصوص الشـــرع، ومطلع حصيف، وهي نصـــوص موجودة في كتـــب الصحيح ما أحوج أبناءنا للإطـــلاع عليها حتى لا يقعوا في هذه الآفة الخطيرة، ومنها: قوله تعالى: ﴿**إن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا**﴾[3]. قال مجاهد في تفسيرها: «ولن يغلب عسر يسرين» [4].

- وعـن الأزرَقُ بْـنُ قيْسٍ قالَ كُنَّا بالأَهْوَازِ نُقاتِلُ الْحَرورِيَّة، فبينما أنَا عَلى جُرُفِ نَهَرٍ إذا رجلٌ يُصَلي، وَإذا لِجَامُ دَابَّتِه بيَدِه فجعلت الدابة تنازعه، وجعل يتبعها، قال شعبة هو أبو برزه الأسلمي فَجَعَلَ رَجُلُ منَ الْخَوَارِجِ يَقُولُ اللَّهُمَّ افْعَلْ بهَذَا الشَّـيْخِ. فَلَمَّا انْصرَفَ الشَّـيْخُ قالَ إنِّي سَـمِعْتُ قوْلكُمْ، وَإنِّي غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ستَّ غَزَوَاتٍ أوْ سَبْعَ غَزوَاتٍ أوَثَمَانياً، وَإنِّى أنْ كُنْتُ أنْ أرَاجِعَ مَعَ دَابَّتِي أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أدَعَهَا تَرْجعُ إلى مَألفِهَا فَيَشُقَّ عَلي» [5].

- وفي رواية أخرى عَن الأزْرَق بْن قيْسٍ قالَ كُنَّا عَلَى شَـاطِئِ نَهْرٍ بالأهْوَازِ قَدْ نضَبَ عَنْهُ الْمَاءُ، فجَاءَ أبُو بَرْزَةَ الأسْـلمِيُّ عَلى فَرَسٍ، فصَلَّى وَخَلَّى فَرَسَـهُ، فأنْطَلَقتِ الْفَرسُ، فتَرَكَ صَلاَتَهُ وَتبعَهَا حَتَّى أدْرَكَهَا، فأخَذَهَا ثُمَّ جاءَ فقضَى صَلاتَهُ، وَفينَا رَجُلٌ لَهُ رَأي، فأقبَلَ يَقُولُ انْظُروا إلى هَذا الشَّـيْخِ تَرَكَ صَلاَتَهُ

١- صحيح مسلم رقم: ١٦٠٥، وصحيح ابن ماجه رقم: ١٠٧٤/ ٨٨٠ . وصحيح ابي داود رقم: ١٠٨٣ .

٢ - المعجم الكبير للطبراني: ٨/١٥٣

٣- سورة الشرح

٤-صحيح البخاري كتاب التفسير سورة الشرح رقم: ٤٩

٥- صحيح البخاري كتاب العمل في الصلاة رقم: ١٢١١ . وصحيح ابن خزيمة رقم: ٣١٧ ج: ٢/٤٠

مِنْ أَجْلِ فَرَسٍ. فأقبَل فقالَ مَا عَنَّفَنِي أحَدٌ مُنْذُ فارَقتُ رَسُولَ اللّه ﷺ، وَقالَ إنَّ مَنْزِلِي مُتَرَاخ فلَوْ صَلَّيْتُ وَتركْتُ لَمْ آتِ أهْلِي إلى اللَّيْل. وَذكَرَ أنَّهُ صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ فرأى مِنْ تيْسِيرِه»[1]. ومن الجهل بالرخصة.

أ- إلزام بعض الناس أنفسهم ما لا يلزمهم به الشارع ومن أمثله ذلك:

- ما روته عَائشَة رضي اللّه عنها قالَتْ كَانَتْ عِنْدِي امْرَأةٌ مِنْ بَنِي أسدٍ فدَخَل عَلَيَّ رَسُولُ اللّه ﷺ فقالَ «مَنْ هَذِهِ قُلتُ فُلانة لاَ تَنَامُ باللَّيْل فذُكِرَ مِنْ صَلاتِهَا فقالَ «مَهْ عَليْكُمْ مَا تُطِيقونَ مِنَ الأعْمَالِ، فَإنَّ اللّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[2].

- وعَنْ أنَس بْن مَالِكٍ - رضي اللّه عنه - قالَ دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ فإذا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْن فقالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ «قالوا هَذا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فإذا فَتَرتْ تَعَلقتْ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لاَ، حُلُوهُ، لِيُصَلِّ أحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فإذَا فتَرَ فلْيَقعُدْ»[3].

- وأخرج الطبراني في الكبير عن كهمس الهلالي قال: قدمت على رسول اللّه ﷺ وأقمت عنده، ثم خرجت عنه، فأتيته بعد حول، فقلت: يارسول اللّه، أما تعرفني؟ قال: لا، قلت: أنا الذي كنت عندك عام أول، قال: فما غيرك بعدي؟ قال: ما أكلت طعاما بنهار منذ فارقتك، قال: فمن أمرك بتعذيب نفسك؟ صم يوماً من الشهر، قلت: زدني فزادني حتى قال: صم ثلاثة أيام من كل شهر»[4].

١- صحيح البخاري كتاب العمل في الصلاة باب ١١ رقم: ١٢١١
٢- صحيح البخاري كتاب التهجد باب ١٨ رقم: ١١٥١
٣- صحيح البخاري كتاب التهجد باب ١٨ رقم:١١٥٠
٤- المعجم الكبير للطبراني: ١٩, ١٩٤

ب- تحريمهم على أنفسهم ما أباحه لهم الشارع: أن يغالوا في بعض الأحكام ويحرموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم من طيبات، ومن أمثلة ذلك:

- **عن عَبْد اللّه بْنُ عَمْرِو بْن الْعَاص رضي اللّه عنهما قالَ قال لِي رَسُولُ اللّه ﷺ يَا عَبْدَ اللّه ألمْ أخبَرْ أنَكَ تَصومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْل: فقُلْتُ بَلى يَا رَسُولَ اللّـه، قـالَ: فلاَ تَفْعَلْ، صُمْ وَأفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فإنَّ لجَسَـدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإنَّ لِعَيْنِـكَ عَلَيْكَ حَقّـا، وَإنَّ لزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَإنَّ لـِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإنَّ يَحَسْبكَ أنْ تَصُوم من كُلَّ شَهْرٍ ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله فشددت، فشـددت عَليَّ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه، إنِّي أجدُ قُوَّةً. قالَ فَصُمْ صِيَامَ نبِيَّ اللَّه دَاوُدَ عَليْهِ السَّلامُ وَلا تَزِدْ عَليْهِ قُلْتُ وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيّ اللّه دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاُم قالَ نِصْفَ الدَّهْر، فكَانَ عَبْدُاللّهِ يقُولُ بَعْدَ مَا كَبرَ يَا لِيْتَنِي قَبلْتُ رُخْصَة النَّبيّ ﷺ»[1].**

- وفــي رواية أحمد بســند صحيح بعــض الزيادة وبعــض التفصيل، فعن عبدالله بن عمرو بــن العاص أنه قال: زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلــت عليَّ جعلت لا أنحاش لها مما بي من القوة على العبادة من الصوم والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كنته حتى دخل عليها فقال لها: كيف وجدت بعلك؟ قالــت: خير الرجال أو كخير البعولة من رجل لم يفتش لنا كنفا ولم يعرف لنا فراشــا، فأقبل علي فعذمني وعضني بلســانه، فقال: أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها وفعلت ثم انطلق الى النبي ﷺ فشــكاني فأرسل إليّ النبي ﷺ فأتيته فقال لي: أتصوم النهار؟ قلت: نعم، قال: وتقوم الليل؟ قلت: نعم، قال: لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام،

١- صحيح البخاري كتاب الصوم باب ٥٥ رقم: ١٩٧٥

وأمس النســـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني قال: اقرأ القرآن في كل شـــهر، فقلت: إني أجدني أقوى من ذلك قال: فاقرأه في كل عشـــرة أيام، قلـــت: إني أجدني أقوى من ذلك قال: قال فاقرأه كل ثلاث ثم صم من كل شهر ثلاثة أيام، قلت اني أجدني أقوى من ذلك قال فلم يزل يرفعني حتى قـــال صم يوما وأفطر يوما، فإنه أفضل الصيام، وهو صيام أخي داود، ثم قال: فإن لكل عابد شرة ولكل شرة فترة فإما الى سنة أو الى بدعة، فمن كانـــت فترته الى ســـنة فقد اهتدى، ومن كانت فترتـــه الى غير ذلك فقد هلك، قال مجاهد: فكان عبداللّه بن عمرو حيث ضعف وكبر يصوم الأيام كذلك يصل بعضها الى بعض، ليتقوى بذلك ثم يفطر بعد ذلك الأيام قال: وكان يقـــرأ في كل حزبه كذلك، يزيـــد أحيانا وينقص أحياناً، ثم إنه يوفي العدد، إما في ســـبع وإما في ثلاث، قال: ثم كان يقول بعد ذلك: لأن أكون قبلت رخصة رســـول الله ﷺ أحب إلى مما عدل به أو عدل، لكني فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره»[1].

- **وزاد النبي الكريم بيانا لأمر التيسير والتوازن المطلوب لدى الإنسان فيما هـو واجـب عليه من حقوق، حيث روى عوْن بْن أبـي جُحَيْفَة عَنْ أبيهِ قالَ: آخَى النَّبي ﷺ بَيْنَ سـلْمَانَ وَأبي الدَّرْدَاءِ، فزَارَ سَـلْمَانُ أبَا الدَّرْدَاءِ فرَأى أمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذّلة فقال لها مَا شَأنُك قالتْ أخُوكَ أبُو الدَّرْدَاءِ ليْسَ لهُ حَاجَةُ فِي الدُنيَا فَجَاءَ أبُو الدَّرْدَاءِ فصَنَعَ لَهُ طَعَاماً فقالَ كُلْ فإنّي صَائمٌ. قالَ مَا أنَـا بآكِلٍ حَتَّى تأكَلَ. فأكَلَ، فلمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذهبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ فقالَ نَمْ. فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فقالَ نَمْ، فلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قالَ سَلْمَانُ قُم الآنَ، قالَ**

١- صحيح أحمد رقم: ١٩١/١٨٧/١/٦٤٧

فصلّيا فقال له سَلْمَانُ إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حقّاً، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًا، فأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَهُ. فأتى النَّبيَّ فذكَرَ ذَلِكَ لهُ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ». [1].

وزاد الأمر تفصيلاً حين أكد أن سنته هي المطلوب، وهديه هو الطريق الصحيح لحياة مريحة، حيث روى أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: «جَاءَ ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ يَسْألونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبيِّ فلمَّا أخْبرُوا كَأنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فقالوا وَأيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ قدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِه وَمَا تأخَّرَ قالَ أحَدُهُمْ أمَّا أنَا فإنّي أصَلّي اللَّيْلَ أبداً وَقالَ آخَرُ أنَا أصُومُ الدَّهْرَ وَلا أفطِرُ وَقالَ آخَرُ أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلاَ أتَزَوَّجُ أبداً فجَاءَ رَسُولُ اللّه ﷺ فقال أنْتُمُ الَّذينَ قلْتُمْ كَذا وَكَذاَ أمَا وَاللَّه إنّي لأخْشَاكُمْ لِلّه وأتقاكُمْ لهُ، لكِنّي أصُومُ وَأفطِرُ، وأصَلّي وَأرْقُدُ وَأتزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». [2].

بل إنه ما كان ليرغب في تنفير أمته من هذا الدين ويغضب لكل سلوك يوصل الى هذا الأمر ويرغب في إتعاب أمته وإلزامها ما قد تقدر عليه اليوم ولا تستطيعه غدا:

- حيث روى أبو مسْعُودٍ أنَّ رَجُلا قالَ وَاللّه يَا رَسُولَ اللّه إنِّى لأتأخَّرُ عَنْ صَلاةِ الغَدَاةِ مِنْ أجْلِ فُلاَنٍ ممَّا يُطيلُ بنَا فمَا رَأيْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ في مَوْعظةٍ أشَدَّ غَضَباً منه يَوْمَئذٍ ثمَّ قالَ: «إنَّ منْكُم مُنَفِّرِينَ، فأيُكُمْ مَا صَلَّى بالنَّاسِ فَلْيَتجَوَّزْ، فإنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذا الْحَاجَة». [3].

- وعن ابْنَ عَبَّاسٍ قالَ: أعْتَمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لَيْلة بالْعِشَاءِ حَتَّى رَقَدَ النَّاسُ

١- صحيح البخاري كتاب الأدب باب ٨٦ رقم: ٦١٣٩
٢- صحيح البخاري كتاب النكاح باب ١ رقم: ٥٠٦٣
٣- صحيح البخاري كتاب الأذان باب ٦١ رقم: ٧٠٢

وَاسْـتيقظُو، ورقـدُو وَاسْـتَيْقظُوا، فقـامَ عُمرُ بـنُ الْخطَّاب فقـالَ الصَّلاةَ. فخَرجَ نَبىُ اللّه ﷺ كأنى أنظرُ إليه الآن يَقطرُ رأسُـهُ مَاءً، وَاضعاً يدَهُ على رَأسهِ.

فقالَ: «لوْلا أنْ أشقَّ عَلى أمَّتي لأمَرْتُهم أنْ يُصلُوهَا هكَذا، فاسْتَثبَتُ عَطاءً كَيْفَ وَضَعَ النَّبيُّ ﷺ عَلى رَأسِـه يدَهُ كما أنبأهُ ابن عبَّاس فبَدَّد لي عَطاء بيْنَ أصَابعه شَيْئاً مِنْ تَبْديدٍ، ثُمَّ وَضَعَ أطرَافَ أصَابعه عَلى قرْن الرَّأس ثُمَّ ضَمَّهَا، يُمرُّهَا كَذلكَ عَلَى الرَّأس حَتَّى مَسَّتْ إبْهَامُهُ طرَفَ الأُذُن ممَّا يَلي الْوَجْهَ عَلى الصُّدْغ، وَنَاحَيـةِ اللَّحْيَةِ، لا يُقصِّرُ وَلا يَبْطشُ إلاَّ كَذلَك وَقالَ لوْ لا أنْ أشُـقَّ عَلى أمَّتي لأمَرْتُهمْ أنْ يُصلُوا هَكذا».[1].

- وعـن عَائشـة رضـى الله عنها أنَّ رَسُـولَ اللّـه ﷺ خَرجَ ذاتَ ليلـةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْـل، فصلَّى في المْسْـجد، فصَلَّى رجَلٌ بصَلاتـه فأصْبَحَ النَّاسُ فتحدَّثُوا، فاجْتَمَعَ أكْثَرُ مِنْهُمْ فصلوا مَعَهُ فأصبْحَ النَّاسُ فتَحَدَّثوا فكثرَ أهْلُ المْسَجْدِ مِنَ اللَّيْلةِ الثالَثة، فخَرَج رَسُـوُلُ الله ﷺ فصَّلوْا بصَلاته، فلمَّا كَانَت اللَّيْلة الرابعة، عَجَزَ المْسَجْدُ عَنْ أهْله حَتَّى خَرَج لِصلاةِ الصُّبْح،فلمَّا قضى الفَجْرَ أقبَلَ عَلىَ النَّاس، فتَشهَّد ثُمَّ قالَ أمَّا بَعْدُ فإنهُ لمْ يَخْفَ عَليَّ مَكانُكُم، لكنِّي خَشيتُ أنْ تُفْرَضَ عَليْكمْ فتعجزوُا عَنْهَا».[2].

- وعن أبي هُرَيْرَ قال قالَ رسوُلُ اللّه ﷺ: «لوْلاَ أنْ أشُقَّ عَلى أمَّتي ما تَخَلَّفتُ عَنْ سَـريَّة، وَلكنْ لا أجدُ حَمُولة، ولا أجدُ مَا أحْملُهمْ عليْه، ويَشُـقُّ عَليّ أن يَتَخلفـوا عنـي، وَلوَ ددْتُ أنى قاتَلْتُ في سَـبيل اللّه فقُتلـتُ، ثُمَّ أحْييتُ ثُمَّ

١- صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب ٢٤ قرم: ٥٧١

٢- صحيح البخاري كتاب الجمعة باب ٢٩ رقم: ٩٢٤

قُتِلْتُ ثُمَّ أحْييتُ» [1].

- الاشتغال بالمهم مع ترك الأهم، أو بالفروع وترك الأصول

يقول ابن تيمية: ولا يجوز التفرق بذلك بين الأمة، ولا أن يعطى المستحب فوق حقه، فإنه قد يكون من أتى بغير ذلك المستحب من أمور أخرى واجبة أو مستحبة أفضل بكثير، ولا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزله الواجبات بحيث يتمنع الرجل من تركها، ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله، بل يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها، بل الواجبات كذلك، ومعلوم أن ائتلاف قلوب الأمة أعظم في الدين من بعض المستحبات، فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل إذا كان مصلحة ائتلاف القلوب من دون مصلحة ذلك المستحب.

وقد بين الرسول ﷺ ذلك بقوله لعائشة رضى الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية (أو قال بكفر) لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها من الحجر» وفي رواية: «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين باباً شرقيا وبابا غربيا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة». [2].

وقد احتج البخاري وغيره بهذا الحديث على أن الإمام قد يترك بعض الأمور المختارة لأجل تأليف القلوب ودفعا لنفرتها، ولهذا نص الإمام أحمد على أنه يجهر بالبسملة عند المعارض الراجح فقال: يجهر بها إذا كان بالمدينة،

١- صحيح البخاري كتاب الجهاد باب ١١٩ رقم: ٢٩٧٢

٢- صحيح البخاري رقم: ١٥٨٦، و٧٢٤٣، وصحيح مسلم رقم الحديث: ٣٣٠٧

قال القاضي: لأن أهلها إذا كانوا يجهرون، فيجهر بها للتأليف وليعلمهم أنه يقرأ بها، وقال غيره بل لأنهم كانوا لا يقرأونها بحال، فيجهر بها ليعلمهم أنه يقرأ بها، وأن قراءتها سنَّة، فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته، وبهذا يزول الشك والطعن، فإن الاتفاق إذا حصل على جواز الجميع وإجزائه، على أنه داخل في المشروع، فالتنازع في الرجحان لا يضر، كالتنازل في رجحان بعض القراءات، وبعض العبادات».[1].

والدافع لهذا الكلام التنبية الى أمر الخلاف الذي حصل ويحصل في الأمة في أمور أخذت من حجمها أكثر مما يجب وأمور أهملت أكثر مما يجب حتى كادت تنسى. وبالتأكيد لكل صاحب قول مما ذكر حججه وأدلته وتأويلاته للنصوص وتفسيراته لها ليس هذا محل مناقشتها واستعراضها.

وقصدي من كل هذه المحاورة تقديم سؤال كبير ما أحوج الأمة له في زمننا وهو إلى متى تظل أمة الإسلام تتشبت بالجزئيات وتترك الكليات؟ وهذا سؤال لا يلغى الجزئيات ولا يحتقرها، بل يسعى إلى تقديم ما ينبغي تقديمه، وتأخير ما ينبغي تأخيره فقط.

مع العلم أن المتأمل في نصوص الشرع سيجد الكثير من القضايا التي قُدمت ويجب تأخيرها وقضايا أُخرت ويجب تقديمها، والذي أتمنى حصوله يوما ما هو أن يفقه شبابنا وموجهوهم من علماء الأمة كيف يحسنوا تقديم ما يستحق التقديم ويؤخروا ما يستحق التأخير؟، فيقل الخلاف، ونغير من قدر الله فينا نحو الأئتلاف.

الجهل بقدر الاختلاف وبوجوب الأئتلاف:

١- خلاف الأمة لابن تيمية: ١/١٢٤

فقد أخـــرج البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رســـول الله ﷺ لمـــا نزلت الآية ٦٥- من ســـورة الأنعام: ﴿**قل هـو القادر علـى أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم**﴾ قال رســـول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: أعوذ بوجهك، ﴿**أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر» [١]. وورد في كتاب الاعتصام بلفظ: «هاتان أهون أو أيســـر» أي خصلة الالتبـــاس وخصلة إذاقة بعضهم بأس بعض.

وقد روى الترمذي من حديث ســـعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿**قل هو القادر**﴾ إلى آخرها فقال: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» [٢].

- وعن سعد ابن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمســـجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتـــين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال ﷺ: (سألتُ ربّي ثلاثا فأعطاني اثنْتَين وَمنعني واحدة سألت رَبّي ألا يهلك أمَّتي بالسَّنَة فأعْطانيها، وسألتهُ ألا يُهْلكَ أمَّتي بالغَرق فأعْطانِيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» [٣].

نصـــوص لا أعتقد أن أحدا من المســـلمين يجادل فيهـــا، فالخلاف قدر محتوم والتشـــيع آفة الأمة، والبأس بين أفرادها وجماعاتها شـــديد، ولكن أليس من حل لهذه المعضلة؟

١- صحيح البخاري رقم: ٤٦٢٨، و ٧٢١٣، وسنن ابن ماجه رقم: ٣٩٥٤

٢- سن الترمذي: رقم:٣٠٨٢، ومسند أحمد رقم: ١٤٧٠

٣- صحيح مسلم كتاب ا لفتن وأشراط الساعة: باب ٥/رقم: ٧٤٤٢

نعم هناك حلٌّ وألف حل، فما خلق الله داء إلا وخلق له دواء[1].

ولعل الخلاف والفرقة من أكبر الأدواء، فإذا كان الخلاف في الأمة والتشيع والبأس القائم بينهم من قدر الله فيها، وأننا أينما ذهبنا وارتحلنا ومهما فعلنا وغيرنا فنحن في قدر الله، فلماذا لا نفر من قدر الله المتمثل في الخلاف الى قدر الله الآخر الذي هو التقليل منه أو محوه، أو التراحم أثناءه أو بعده على الأقل.

وهو ما يبينه الحديث الذي رواه حبر الأمة أن عُمرَ بْن الخطابِ خَرَجَ إلى الشَّام حتى إذا كَانَ بسَرْغ لقيهُ أمَرَاءُ الأجْنادِ أبُو عُبيدْة بْنُ الجَرَّاح وأصّحابُه، فأخبْروُهُ أنَّ الوْبَاء قدْ وَقعَ بأرْض الشَّام قالَ ابْنُ عَبَّاس فقال عُمَرُ ادْعُ لي الْمهَاجرينَ الأوَّلينَ فدَعَاهُم فاستشارهم وأخبرهم أنَّ الوباء قدْ وَقعَ بأرْض الشَّام فاختلفوا فقالَ بعضهم قد خرجت لأمْرٍ، وَلا نَرىَ أنْ ترجع عنه وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن نقدمهم على هذا الوباء فقال ارتفعوا عني ثم قال ادعوا لي الأنصار فدعونهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال ارتفعوا عني ثم قال ادعوا لي من كان ها هُنَا مِنْ مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعونهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عُمرُ في الناس إني مُصبحُ على ظهر فأصبحوا عليه قال أبو عبيد بن الجراح أفراراً من قدر الله فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نَفُّر من قدر الله الى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن

١- صحيح البخاري كتاب الطب رقم: ٥٦٧٨

رعيت الخصبة رعيتها بقـدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله قال فجـاء عبدُالرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال إن عندي في هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه قال فحمد الله عمر ثم انصرف» [1].

فـإن لم يفد الدواء فـي القضاء على الخلاف فبالتأكيد أنه سـيخفف مـن آلامه وينقص من طغيانه، ولن يكـون ذلك إلا بالإرادة المبنية على العلم والتعلم وإحسـان القصد والنية، ليصل الفرد إلى المبتغى وهو أن الاختلاف أمر طبيعي ولكن التراحم أثناءه وبعده أمر ضروري.

وهـو مافهمه السـلف الصالـح عند تأويـل قوله تعالـى: ﴿**ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ [2] قال عطاء ومقاتل ويمان: «أي للاختلاف خلقهم» [3].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: «ولرحمته خلقهم»[4].

فمطلوب من الأمة أن تتراحم أثناء الاختلاف، وتسعى الى التقليل منه ما أمكنها من جهد، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالرجوع الى الحل الذي قدمه المصطفى ﷺ لأمته في وقوله: «فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشـدين المهديين بعدي عضّوا عليها بالنواجـذ وإياكم والأمور المحدثات

١- صحيح البخاري كتاب الطب باب ٣٠ رقم الحديث: ٥٧٢٩، وطرفاه في: ٥٧٣٠ و٦٩٧٣

٢- سورة هود: الآية: ١١٨- ١١٩

٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/١١٥

٤ -الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/١١٥

فـإن كل بدعـة ضلالة» [1]، وقوله ﷺ: «تركت فيكم مـا لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله» [2]. وفي رواية: «كتاب الله وسـنتي» [3]، وفي لفظ: «كتاب الله وسنتي» [4].

وبالتأكيـد أن الاعتصام بحبـل الله المنصوص عليه في الآية السـابقة ﴿**واعتصمـوا بحبـل الله جمعيا ولا تفرقوا**﴾ والتمسك بالمنصوص عليه في هـذه الأحاديث ليعد من الأمـور المفيدة والمعينة علـى التقليل من الخلاف والاختلاف، والميسرة للوصول الى وحدة هذه الأمة المشتتة والممزقة.

وقديما قال الشاعر:

لا تحقرن الـرأي وهـو موافق
حكم الصواب إذا أتى من ناقص

فالدر وهـو أعـز شـيء يقتني
ما حط قيمته هوان الغائص

ولكن بالجهل بمثل هـذه النصوص الذهبية يحصل ما يحصل اليوم بين أفراد الأمة.

ومـن ملامح هذا الجهل مـا قد يحصل من تعصـب للطائفة في الحق والباطل:

١- أخرجه ابن ماجه رقم: ٤٢ و ٤٣، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، والترمذي باب ماجاء في الأخذ بالسـنة واجتناب البدع رقم: ٢٥٨٦، والدرامي: /١٦ باب اتباع السـنة، ١/٣٧، وابن حبان في صحيحه: ١/١٧٩، واحمد في مسندة: ١٧٢٤١، والطبراني في معجمه الكبير: ١٨/٢٤٥ و ٢٥٧ .

٢ - صحيح مسلم كتاب الحج باب /١٩ رقم: ٣٠٠٩، وسنن ابن ماجه رقم: ٣٠٦٧

٣- سنن الترمذي رقم: ٣٨٠٢، ومسند أحمد: ١١٢٦٨، والطبراني في الكبير: ٣/٦٦ و ٥/١٥٣

٤ - سنن الدار قطني: ٤/٢٤٥

ويتعلق الأمر بتقديس ما تقوله الطائفة كيفما كان هذا الأمر، سواء تعلق بأمور فقهية أو عقدية، تجعله يغالي في اتخاذ موقف من بعض الناس المخالفين له في الرأى أو الموقف، مما قد يدفعه في بعض الأحيان الى الاشتغال بأخطائهم وظلمهم وقدحهم وتبديعهم وتفسيقهم، ولربما الى استحلال دمهم لمخالفتهم له، وهذا من الجهل بالاختلاف المشروع وقبول الرأي الآخر الذي جاءت به آداب الشريعة ونصوصها.

- ويحكي لنا ابن العربي قصة وقعت بحضوره وفي زمانه بسبب التكبير عند الركوع وعند الرفع منه فقال: «ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع، وعند رفع الرأس منه، وهذا مذهب مالك والشافعي، وتفعله الشيعة، فحضر عندي يوماً بمحرس ابن الشواء بالثغر موضوع تدريسي عند صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم الى الصف الأول وأنا في مؤخره قاعد على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر، ومعه في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطلع إلى مراكب تحت الميناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به في البحر، فلا يراكم أحد، فطار قلبي من بين جوانحي، وقلت: سبحان اللّه، هذا الطرطوشي فقيه الوقت، فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه، وجعلت أسكنهم وأسكتهم، حتى فرغ من صلاته، وقمت معه الى المسكن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره وسألني فأعلمته فضحك، وقال:

ومن أين لي أن أقتل على سنة، فقلت له: ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك، وربما ذهب دمك، فقال: دع هذا الكلام وخذ في غيره» [١].

- وقد نبه الإمام الشاطبي يرحمه الله لهذا الخطر وحذر منه فقال: «إن تعويد الطالب على ألا يطلع إلا على مذهب واحد ربما يكسبه ذلك نفوراً وإنكاراً لكل مذهب غير مذهبه ما دام لم يطلع على أدلته، فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمة أجمع الناس على فضلهم وتقدمهم في الدين، وخبرتهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه» [٢].

بهذا الفهم السليم، باتباع هذا المنهج القويم نستطيع إن شاء الله ان نقضي على الغلو والتشدد إذا استطعنا استيعاب هذه الأسباب وتم العمل على تلافيها وتجاوزها، وهذا ليس بالأمر الصعب على شبابنا، وما يملكون من إرادة وعزيمة، وليس صعبا على علمائنا إن أحسنوا التوجيه والإرشاد، وخصوصا أنه قد ورد عن النبي الكريم ﷺ قوله: «لا تنال شفاعتي الغالي في الدين ولا الجافي عنه» [٣].

• • • • • • • •

١- الأحكام لابن العربي: ٤/١٩١٢، من تفسير سورة الانشقاق
٢- الموافقات للشاطبي: ٢/٢٧٣، طبع منير
٣- مسند الربيع: ١/٣٧٩

تأصيل الفكر الإسلامي خارج البيئة العربية.. مفاهيم وآليات (*)

محمد سعيد باه

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٤٦ ص٢٠ وعدد ٤٤٧ ص ٥٦ .

دعونا نستفتح الحديث بأن نروي الحكاية التالية:

بعد أن انتهى المؤذن من رفع النداء، نهض الإمام الذي كان قد اعتلى المنبر، ليسرد خطبته العصماء، لكن الرجل ظل منهمكاً في قراءة جريدته الفرنسية، وعندما حاول جاره أن يلفت نظره إلى ضرورة الاستماع إلى الخطبة رد ببساطة وبكل برود ودون أن يرفع ناظريه عن السطور والصور: أنه لا يخاطبني! . يعني الإمام طبعاً .

هذه ليست قصة سمجة من نسج الخيال الملتهب بصور الهروب من الحقيقة، بل واقعة مُرَّة عشناها في أحد المساجد التي تعجُّ بآلاف المصلين يوم الجمعة في بلد إسلامي عريق.

بعد أن تتملكنا الحيرة، استسلمنا ولا شك إلى التساؤل المتسلسل:

ما الذي دفع الوضع في هذا الاتجاه الخاطئ الخطير؟ أليس الرجل محقاً إذا نظرنا إلى المسألة من الزاوية الوظيفية للخطبة[1]، ولم نحصر القضية في إطار المقدَّس وبنية التبرك؟ ودون التورط في محاولة التبرير لغير المبرر، نميل إلى تفسير مسلك الرجل ونراه ينم عن محاولة يائسة للاحتجاج على واقع منحرف بأسلوب غير سوي ومن النوع الحزين. كما يحمل في طياته دلالة خطيرة في مجال العجز عن إيجاد قنوات التواصل بين الشعوب المسلمة وبين انتمائها العقدي من جهة، والقصور المشين الذي تعاني منه الأمة ويحول دون تطوير آليات نقل وتأصيل الفكر الإسلامي خارج البيئة العربية من جهة أخرى.

١- يروي د .عبدالرحمن حمود السميط . الأمين العام للجنة مسلمي أفريقيا، بأنه سمع إماماً يدعو للسلطان العثماني في خطبة الجمعة.

الفجوة الثقافية

إن قضية حمل وتبليغ رسالة الإسلام إلى الشعوب غير الناطقة بلغة القرآن الكريم من الضخامة والخطورة، بحيث لا يعقل أن تكون مسألة هامشية يتناولها المنشغلون بهموم الدعوة كيفما اتفق ودون التحرك في إطار سياسات محددة واستراتيجيات بعيدة المدى ثابتة الأركان.

وبالرغم من بعض الجهود المشكورة القائمة، فإن الإنجاز لم يصل إلى مستوى الآمال، بل وقف دونها بمراحل، ولكي تتضح الصورة أكثر، فلنقارن بين حركتي النقل والترجمة في الاتجاهين منذ العهود الزاهرة التي ولدتا فيها، حيث يمكننا العودة إلى العصر العباسي عندما نشطت حركة الترجمة من الفكر اليوناني وغيره إلى العربية، وقس على ذلك المراحل التالية.

ويمكن تعليل عدم الاهتمام بالقضية إلى درجة اعتبارها من الأولويات بأن المد الإسلامي كان من القوة والاتساع بما يرغم الشعوب الأخرى على حث الخطى نحو الإسلام عبر بوابة العربية.

لكن منذ أن اشتد تباطؤ التيار، حدثت فجوة هائلة ظلت تشتد بين مصادر الإسلام وواقع تلك الشعوب إلى درجة القطيعة الفكرية الكاملة، بالرغم من بقاء الولاء العاطفي حياً نابضاً يتغذى بدفء العاطفة مفتقداً إلى الروافد الثقافية اللازمة، ما جعل قضايا الإسلام الفكرية عائمة هائمة.

هذا الوضع يمكن تعميمه إلى درجة كبيرة على عموم الشعوب غير الموصولة بمصادر الإسلام برابطة اللغة، مع وجود تفاوت معتبر بين الأوضاع لأسباب تاريخية وجغرافية، فنجد النقلة النوعية الواسعة التي حققها الفكر الإسلامي في منطقة آسيا، حيث أصبحت لغات مثل التركية

والآردية تتوافر على مخزون هائل عن الفكر الإسلامي، أوصلها إلى درجة الإسهام المميز، سواء من حيث الحجم أو النضج، ونجد نماذج في أعمال «المودودي» و«إقبال» و«حميد الله».... ولأسباب أخرى موضوعية نجد خط اللغات الأوروبية يتحسن باستمرار منذ ميلاد حركة تصحيح المسار السارية «الصحوة»، فأصبحت السوق الثقافية الأوروبية أو المعتمدة عليها تشهد رواجاً جيداً مع ملاحظة نقطتين:

١- وفَّرت حركة الاستشراق أرضية ثقافية مناسبة لنمو هذا التوجه وإنضاجه.

٢- في الجانب الكمي فإن الاهتمام انصبَّ كذلك على الناحية الكيفية سواء تمثل في المادة المترجمة أو في طرائق التناول التي أسهمت في معالجة الأخطاء وكشف العوار، حيث تراجع خط الاستشراق التضليلي، وهنا أيضاً نلتقط نماذج جيدة تتمثل في أعمال «كشريد، وهوفمان، وحمزة بوبكر، وغارودي، وحميد الله»، ثم نلاحظ أن المسألة حققت نقلة نوعية قيِّمة، وذلك بانتقال العمل والاهتمام من حيز الجهود الفردية المبعثرة والموسومة بالقصور في حالات كثيرة، إلى جهود جماعية تنهض بها مؤسسات تمتلك المؤهلات الضرورية.[1] التي وفَّرت مواد إسلامية ثقافية ذات قيمة أسهمت إلى حد بعيد في التوعية الإسلامية على المستويين الشعبي والنخبوي معاً، وعلى المستوى الأفريقي، نلحظ تفاوتاً معتبراً بين المستوى المتقدم نسبياً، والذي وصلت إليه كل من «الهوسا والسواحلية»، حيث نجد ترجمات للقرآن الكريم تتمتع بقدر مقبول من المصداقية العلمية، ما يجعلها لبنات

١- من أهم هذه المؤسسات: المنظمة الإسلامية للعلوم والتربية والثقافة، الرئاسة العامة للدعوة... ولجنة مسلمي أفريقيا والاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية.

صالحة لأعمال تكميلية تتوافر لها فرص أفضل لإنضاج وتطوير التجربة. نجد تفاوتاً بينها وبين بقية كبرى اللغات الأفريقية التي لا يزال حظها من الاهتمام بهذا المجال أقل كثيراً.

اللغات الإسلامية الأفريقية

وفي ظل هذا الوضع، نجد الحالة في أفريقيا «القارة المسلمة» تتجه نحو الانحدار، وقبل سرد الواقع القائم، نرجع مع خطوات التاريخ قليلاً، لنرى الوضع اللغوي عموماً، ثم نوعية العلاقة مع الفكر الإسلامي عبر أداة نقلها والفضاء الثقافي، الذي يتحرك فيه هذا الأخير.

الذي يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن الوضع اللغوي في أفريقيا هو أن عدد اللغات من الكثرة والتشرذم إلى درجة أنها تستعصي على الحصر، وبالتالي عدم جدية أي خطوة للتعامل معها في إطار فكري هادف، وتترادف. كما يقول «فنسان مونتاي» مع «تهم أخرى ثلاثة: البدائية. المحلية. الشفهية»[1].

هذا التصور لا يستند إلى أي معطيات قائمة تثبت عند التمحيص العلمي أو الاستقراء الميداني، وأقوى طرح في مجال الدراسات الاجتماعية واللغويات يقوم على أساس ظاهرة اللهجات المتفرعة التي تعرفها مناطق أخرى كثيرة تكاد في حالات كثيرة تطغى على اللغات الأم فتنقلب الصورة الخارجية.

وهناك من المتخصصين من يرى إرجاع جميع اللغات الأفريقية إلى عائلتين لغويتين كبيرتين:

١- للتوسع راجع كتابه: الإسلام الأسود الذي صدرت ترجمته العربية بعنوان: «الإسلام في أفريقيا السوداء».

- العائلة الحامية - السامية.

- العائلة النيجرو - الكونغولية.

ودون التوغل في الجدل الذي يمكن أن يثور حول مثل هذه القضايا، ننتقل خطوة تقربنا إلى الواقع، ففي أفريقيا اليوم تم اعتماد (٤) لغات أساسية هي: «الهوسا»، و«السواحلية»، و«الفلانية»، و«اليوربا».

ينطق بها عشرات وربما مئات الملايين، فنجد أن عدد الناطقين بـ«الهوسا» مثلاً يصل إلى نحو ٥٥ مليون نسمة، ويلاحظ إلى كونها تمثل لغات الشرائح الإسلامية المهمة في القارة، بحيث يشكل المسلمون أغلبية الناطقين بها، ما يجعل لوصفها «اللغات الإسلامية الأفريقية» رصيداً من المصداقية، فمثلاً نجد أن نسبة المسلمين من بين «الفلانيين» ٩٧٪، ويرى «فنسان فونتاي» أن هذه اللغات بالإضافة إلى «البامبارا» «الماندينغ» مرشحة لأن تصبح أداة تجميع لفكرة الولايات الأفريقية المتحدة.[١]

وإلى جانب هذه اللغات الكبرى التي تتوزع في الساحة هناك لغات ذات عدد محدود من حيث الناطقين بها، لكن لها مزايا منها:

١- قربها من الفكر الإسلامي لارتباطها به بعلاقات تاريخية متجذِّرة وطويلة.

٢- الحيوية التي تعطيها القدرة على التفاعل والاقتباس والنمو.

٣- تماسك مناطق وجودها مما يسهل عملية تسخيرها في أي مشروع فكري هادف.

١- المرجع السابق.

ومـــن أهم هذه اللغات: «الماندينغ» التي تمتد في سلســـلة من نحو ســـتة بلدان بغرب أفريقيا:

- «السوننكي» في كل من موريتانيا والسنغال ومالي.

- «ديولا» في ساحل العاج.

القدرة على النقل والأداء:

وهنا سؤال جوهري يتعلق بمدى توافر اللغات الأفريقية على الطاقة اللازمة «المصطلـــح، والبنيـــة...»، لنجعل منهـــا أداة لنقل مضامـــين وأدبيات الفكر الإســـلامي دون التعرض لمشكلة التحريف أو القصور المخل بحقائق وجوهر الرسالة المراد نقلها؟.

أولاً: إن التجربة التاريخية الحية توفِّر الإجابة على مثل هذا التساؤل بشكل مطمئـــن جداً، حيث نجد أن لغات أفريقية كثيـــرة ظلت لقرون تتفاعل بصورة متســـاندة مع اللغة العربية في إيصال وصقل مضامين وأدبيات الفكر الإســـلامي، وتكفي مراجعة الأرشـــيفات التي تزخر بمواد الفكر الإسلامي الناضج الذي تم إنتاجه وإنضاجه بحضور اللغات الأفريقية حتـــى أننا نجد أن أقـــدم ثلاث محاولات تاريخية جـــادة لكتابة اللغات الأفريقية تمت على أيدي أناس صقلتهم تجربة الفكر الإســـلامي، من بين هؤلاء ســـلطان «البامو»، ومحاولة أخرى قام بها مثقف مســـلم في ليبيريا العام ١٨٣٥م، والثالثة تمت على يد الشـــاعر الصومالي «عثمان يوســـف»، وأما بخصـــوص توافر المصطلح، فعلى ســـبيل المثال نجد أن قاموســـاً باللغة «الفلانية» يشـــتمل على ٦٠ ألفاً من المشتقات النظرية ترجع إلى ثلاثة آلاف جذر لغوي، ويمكن العثور على أمثلة أقوى وأكثر

دلالة في اللغات المساوقة الأخرى «الهوسا . السواحلية»[١].

وسعياً إلى تحقيق هدف الإبانة والقدرة على نقل الفكر الإسلامي، لجأت «الفلانية» استكمالاً لنقص اصطلاحي استشعره، إلى تبني حرف «ق» العربية لتتمكن من تبنِّي معاني دينية جديدة وافدة، وأعجب من هذا تبنِّي صيغ العروض العربي لضبط القصيدة الفلانية [٢].

وبخصوص المصطلح نفاجأ بأن لغات مثل «السواحلية والفلانية والماندينغية والسوننكه» تختزن ما يصل إلى نحو ٤٠٪ من المصطلحات ذات الجذور العربية.

إذا انتقلنا إلى ما يتعلق بالبنية التي تمثل القابلية للتعبير جانباً مهماً فيها، نجد أنه بالإضافة إلى الدفعة القوية التي تلقتها اللغات الأفريقية بعد احتكاكها بالحضارة الإسلامية وهي في حالي الاندفاع والعطاء عرفت محاولات جادة وناجحة لوضع قواعد الكتابة بشكل رصين قادر على الثبات، فمثلاً نجد أن كل اللغات الأفريقية المعروفة تتوافر الآن على منظومة ثابتة ومتكاملة لقواعد الكتابة، وقد استقرت على الصيغ النهائية بعد تجارب متقلبة وحادة، فإلى جانب الخلافات اللغوية الأخرى كان النزاع يدور بين أنصار الحرف العربي وخصومه، والذي دام لأكثر من نصف قرن، وقد يأسف بعضهم لأن الحرف اللاتيني قد استطاع فرض نفسه كخيار وحيد وعملي، وتكريساً للواقع الجديد عرفت بعض اللغات الأفريقية تقدماً هائلاً جعلها تتوفر على قواميس لغوية غنية بالمواد مثل: «السواحلية والهوسا» منذ

١- المرجع نفسه.

٢- «اللغة العربية والصراع الحضاري في أفريقيا» للكاتب.

منتصف القرن العشرين.

تقويم الترجمات الإسلامية

من الطبيعي أن تقوم محاولات لنقل أساسيات الفكر الإسلامي إلى اللغات الأفريقية، وترجع تلك المحاولات إلى وقت مبكر جداً، فعلى سبيل المثال، نجد أن هناك ترجمة للقرآن الكريم تمت في «برونو» منذ العام ١٦٧٩م بلغة «الهوسا» وبالحرف العربي، مع وجود النص العربي أمام كل صفحة مترجمة على الطريقة الحديثة المتبعة في الترجمة إلى اللغات الأوروبية كالإنكليزية.

ثم توالت المحاولات تركز على القرآن الكريم في لغات عدة، وفي أكثر من موقع، فعلى سبيل المثال هناك الترجمات بـ:

- **الفلانية:** قام بها المفكر «عمرباه» من الجمهورية الإسلامية الموريتانية، بالحرف اللاتيني.
- **الولوفية:** قام بها «مورامبي سيسي» من السنغال بالحرف العربي.
- **السواحلية:** قامت بها الطائفة القاديانية بالحرف اللاتيني وأخرى بالعربي.
- **الفلانية:** قام بها المفكر «أحمد همباتي باه» بالحرف العربي.

ونلاحظ هنا أن بعض اللغات تتوافر على أكثر من ترجمة كالفلانية، وقد يرجع ذلك إلى كونها أقدم اللغات الأفريقية العريقة.

وإلى جانب ترجمات القرآن الكريم، نعثر على كتب أخرى حول السيرة أو السنة

أو أبواب الفقه والرقائق إما مترجمة أو مؤلفة باللغات الأفريقية.[1]

فإذا انتقلنا إلى إلقاء نظرة نقدية فاحصة قد يصدمنا اكتشاف واقع مر متمثل في رداءة بعض تلك الترجمات التي قد يصل بعضها إلى درجة تحريفات خطيرة في مضمون النص الذي يظهر في النهاية بصورة مفككة مشوهة وقد يرجع ذلك إلى عوامل عدة تضافرت منها:

١- القصور العلمي الفادح الذي يترك آثاراً جدّ سلبية على المتلقي.

٢- الطابع الفردي الذي لا يناسب مثل هذه الأعمال التي تتطلب تضافر جهود ضخمة وتعبئة طاقات هائلة.

٣- الارتجال الشديد الذي يدفع إلى الاعتساف حتى في حال توافر خلوص النية والزاد الثقافي الذي يلزم هنا.

وهناك استثناءات طبعاً قد يجدها في المناطق التي تيسيطر عليها «الهوسا» والتي أحرزت تقدماً جيداً مقارنة مع لغات أخرى مثل «الفلانية»، وقد يرجع ذلك إلى عامل قرب عهدها بالمظلة الشرعية، وهنا أيضاً يلاحظ أن تحسناً كبيراً طرأ في تلك الأعمال المعاصرة وبخاصة بالنسبة لمن اختاروا طريقة التأليف باللغات الأفريقية مباشرة، وأفضل نموذج نقدمه هنا كتاب الفرائض الذي ألفه الأستاذ «بون عمرلي» وقد صدرت طبعته الأولى بالفلانية سنة ١٩٩١م، وقد تكون هذه الظاهرة مرشحة للتبلور بشرط أن تلقى الدعم والاهتمام اللازمين.

١- في منطقة شمال السنغال تم رصد ما يربو على مئة مؤلف تعالج مختلف أبواب الفقه والآداب والرقائق.

محورية الأداة اللغوية

لو كان الوضع في الأصل يتطلب التفكير بشـــكل جدي وعملي في إيجاد بدائل مناســـبة، ثم ظهر بُعْدٌ جديد قلب المعادلة بصورة جذرية، ويتمثل في الحملة الواسعة النطاق والتي تســـتهدف تطويع اللغات الأفريقية للمشروع الكنســـي الذي عجزت لغاته الأوروبية عن تجاوز الإطار النخبوي الذي ظل يرتد هو الآخر إلى أصوله وموروثاته كلما ارتقى درجات النضج، وهو وضع استنتجوا منه أن الحاجز الثقافي الناتج هو الآخر من العامل اللغوي سيظل عائقاً يســـتعصي على كل محاولات الاقتحـــام العقائدي المتكررة وعند هذه النقطة برزت محورية اللغات الأفريقية كأداة مناســـبة إذا أحســـن توظيفها لأداء الـــدور المطلوب والمتمثل فـــي اقتحام عقلية الشـــعوب في وقت مبكر استفادة من قاعدة «النقش في الحجر».

حتـــى إذا لم نجرؤ على القول: إن المد الكنســـي هو صاحب المبادرة في تعليم اللغات الوطنية، فإنه بدأ يحقق فيها المكاســـب خلال عقدين ما يفوق كل إنجازاتـــه عبر قرون عدة، ولقد أعطته فرصة الاحتكاك المباشـــر فكرياً بشـــعوب ظلت تتأبى عليه بصراحة وصرامة، ومن تلك الشعوب «الفلانيون» و«الماندينغ» و«السوننكه» على سبيل المثال.

وننبـــه إلـــى أن المحاولة بدأت فـــي وقت باكر جداً، لكـــن اعتماد اللغات الأفريقية على الحرف العربي ظل عائقاً لتوســـيع دائرة الترجمة، ونجد أن جماعة «الكيوشيين» قد قامت بترجمة العقائد المسيحية إلى لغة «الإفي» في منطقة «بنين وتوغو» منذ العام ١٦٥٨م.

وعندما كسب الحرف اللاتيني الجولة كأداة لكتابة اللغات الأفريقية تحولت المحاولات الخجولة والمبتورة إلى موجة واسعة، فترجمت أصول المسيحية

كلها إلى عشـــرات وربما مئات اللجهات، ولقد كان حظ الإنجيل وحده ٥٣ مليون نســـخة خلال ســـنة واحدة ترجمت إلى نحو ٢٠٠ لهجة إلى جانب ٠١٦٨٨ من الكتب الأخرى[١].

وأمـــام هذا التحدي الذي يزداد شراســـة كل يوم لابـــد من تحرك جاد وسريع لهدف رفع التحدي.

وبعد هذا الاستعراض السريع عن الوضع الثقافي القائم في المنطقة والذي أوضحنا فيه أن الاتجاه الحالي لن يكون في صالح المشـــروع الإسلامي، وذلك لأنـــه تم تطويعه حتـــى يخدم أهدافاً أخرى ونمطاً مغايـــراً لمفاهيمنا الفكرية، وانطلاقاً من هذا التشـــخيص نجد أن المشـــروع يقوم على جملة من المعطيات توفر في مجموعها أسساً قوية لشرح أو بيان جدوى تبني مشروع من هذا النوع، ونستعرض بسرعة أقوى تلك الأسس التي تمثل مبررات لقيام المشروع:

أولاً: إن واجب التبليغ يتطلب تكييف الأســـاليب ومواءمة الآليات المســـخَّرة لتكون في خدمة الأهداف المرســـومة مع اشتراط وجود عامل التجانس ويكون ذلك بناء على اســـتقراء الواقع المطلوب تغييره «الإصلاح»، وهنا نجد أنفســـنا أمام حقيقة واقعة لا مناص مـــن الاعتراف بها والتعامل معها تتمثل في:

- أن تبدلاً هائلاً قد طرأ على الواقع الثقافي الأفريقي لأكثر من عامل.
- لقد تحوَّلت اللغات الأفريقية إلى أداة فاعلة للتواصل مع المحيط الخارجي وإن كانـــت وظيفتها لا تزال تنحصر في دور التلقي «التأثر» ولم تصل إلى درجة الفعل بعد.

١- راجع بحثنا تحت عنوان: «استراتيجية مكافحة المد الكنسي في أفريقيا» نُشرت حلقات منه في مجلة «الأمان» البيروتية ١٩٩٤م.

- أما السباق العقائدي «كسب مواقع جديدة» فيكاد ينحصر في الساحة الأفريقية وهي مرشحة إلى أن تبقى كذلك لعقود مقبلة على أقل تقدير.

- أن نصيبنا من عملية التأثير الثقافي يتسم بالضآلة كماً وكيفاً، وهو وضع غير سليم على الإطلاق.

وهنا نرى أهمية توظيف اللغات الأفريقية كمعبر جيد لنقل كنوز الفكر الإسلامي إلى المسلمين الأفارقة.

ثانياً: أن اتباع أسلوب نقل الشعوب والجماعات المستجيبة لنداء الإسلام إلى المظلة الفكرية عبر قنوات لغوية طارئة لم يعد هدفاً واقعياً سهل التحقيق، وفي هذه الحال لن يكون الحل إلا في عكس القاعدة، نقل الإسلام إلى الشعوب بتوظيف القنوات اللغوية الخاصة بها على قاعدة المفكر «هوفمان»[1].

إيجابيات أخرى

بالإضافة إلى ميزة سرعة الإنجاز البارزة في هذا الأسلوب، نجد عناصر إيجابية أخرى:

- إمكانية التجذر والانتشار في آن معاً.

- توافر الجهد وترشيد الطاقة بمعنى اختصار مسافات طويلة.

- الوصول إلى كل شرائح المجتمع، لوجود روابط قوية تسهِّل المهمة.

- وجود ميراث ضخم يصلح «تكئة» للمشروع الجديد.

١- «مراد هوفمان» المفكر الألماني المسلم، انظر كتابه «الإسلام عام ألفين»، وآخر بعنوان: «الإسلام كبديل».

- النمو المتسارع الخطى للنضج الثقافي الذي هو عامل إيجابي.
- إتاحة الفرصة لاعتناء منظومتنا الفكرية باستغلال مدخرات الأفارقة من الفكر الإسلامي.

ثالثاً: خلو الساحة الأفريقية حتى الآن من مشروع مماثل، وهو أمر أقل ما يقال فيه أنه يمثل ثغرة كبيرة في جدار الأمة قد أتينا منها مراراً، وقد حان الوقت لسدِّها، ونقصد قيام مشروع بهذا الحجم يهدف فقط إلى ترجمة القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة إلى اللغات الأفريقية معتمداً على الأسلوب الجماعي مع التركيز على التأصيل العلمي ومع تسخير كل الوسائل التقنية المتوافرة لخدمة المشروع، وتتوافر في هذا المشروع الفرصة الجيدة لملء هذا الفراغ الهائل الذي لن يكون في حال بقائه إلا تمكيناً للمد الآخر بكل مكوناته من الامتداد بسهولة وسرعة في فراغنا مرةأخرى.

رابعاً: إن المراقب اليوم للساحة الأفريقية يكتشف دون أدنى صعوبة بروز موجة واسعة تكاد تنتظم كل مواطني الشعوب الإسلامية في المنطقة تولى وجهها شطر الإسلام بالرغم من كثافة الحجب وعلو الحواجز، لكن ذلك لا يخفى أيضاً حقيقة مرادفة تتمثل في أن العوائق لن تنعدم بل هي كثيرة ومتنوعة بين متوقع وقائم.

وهذا الواقع يفرض القيام بواجب الترشيد والحماية، وهنا يأتي المشروع ليلبي ذلك النداء المنبعث من قلب أفريقيا الجريح والذي ظل ينبض بدم الإسلام رغم جثوها مئات السنين تراوح الوضع فيها بين الحصار ومحاولة اقتلاع الجذور، لأنه كما يقول المفكر «شيخ حامد كن» « ...

أعتقد أنه (الإسلام) دين قلبها (أفريقيا)[1] ويجعل المشروع هذا القلب حياً نشطاً نابضاً يضخ الدم النقي إلى أعضاء الجسم المترهل.

خامساً: إن هناك جزءاً من أفريقيا لا يزال يعيش وضعاً مأساوياً، وضعاً يلفه الظلام الدامس، وضعاً يجعل حياة الفرد ووجود الجماعة كابوساً مزخرفاً تسعى قوى الظلام إلى تكريسه لقصور طروحاته في صقل العقلية الأفريقية في قوالب التثليث والصنمية المعصرنة. التي لا يزال للفطرة حضور مكثف في حناياها، وهو أمر قد يجعلها تتقبل سماع نداء يحمل مواصفات فطرية متجانسة متجاوبة.

إن هذا الجزء سيظل يصيخ السمع لعل نداء الفطرة يتسلل إلى أسماعه فيزيل ذلك الران المتكدس المتراكم.

سادساً: إن الضمان الوحيد المتاح اليوم لإحداث تغيير جذري يتمتع بصفة الديمومة في أفريقيا يتمثل في إيجاد ضوابط عقدية يتمتع بصلابة وسلامة البنيان على نطاق جماهيري، وهو خط ينتهي بنا إلى اللغة كوسيلة لبسط مظلة فكرية تتوافر فيها أرضيته للتغيير العقدي ذاته.

سابعاً: بالإضافة إلى المد الخارجي المنافس هناك الأخطبوط الذي يتمثل في نحلة القاديانية التي تلعب دور الطابور الخامس، محاولة بصورة مستميتة، اختراق الساحة الأفريقية بعد أن ظلت محاصرة، وقد اهتدت إلى ما للغات الأفريقية من تأثير حاسم، فبدأت توظّفها على نطاق واسع.

١- «الشيخ حامد كن» مفكر مسلم من السنغال، شغل منصب وزير التخطيط والصناعة، ترجمها الكاتب إلى العربية بعنوان «المغامرة الغامضة».

البحث عن بدائل مساندة

فإذا كانت مسألة تأصيل الفكر الإسلامي في مواطن الشعوب المنضوية تحت مظلة الإسلام «أغلبيات وأقليات» ليست مثار جدل من الناحية المبدئية، فإن التنازع يظل حاداً إلى حد الاشتباك الفكري[1]، حين يتعلق الأمر بالرؤى والآليات والوسائط العملية التي يجب توظيفها للوصول إلى الهدف المجمع عليه! وهنا نجد أكبر معوق يتمثل في بعض الترسبات الفقهية التي لها ارتباط بظروف انحرافية المزاج الفكري مرت بها الأمة، ويحاول بعضهم لضمور فقه الواقع والمتغير عنده التشبث بتلك الترسبات، وذلك أمام قضايا خطرة لها مساس بمصير شرائح شاسعة من بلدان وشعوب تواجه أخطار الذوبان والصهر في بوتقة المسخ والاستنساخ، ومن أظهر الأمثلة على ترجمة معاني القرآن الكريم لغة الخطبة[2]، لا جدال في أن العربية هي لغة الأمة الأم باعتبارها وعاء القرآن بنص القرآن نفسه: ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾.

لكن أيتنافر ذلك مع تبني فكرة القبول بوجود اللغات الإسلامية الرديفة؟[3]، ومن الناحية التاريخية، فقد اكتسحت العربية مساحات جغرافية وبشرية شاسعة على جناح الإسلام الزاحف يوم كان الزخم الحضاري والرصيد الفكري للإسلام كافيين، وكان الجذب قوياً لدرجة شد الشعوب والقبائل التي جاءت

١- يدور اليوم صراع فكري شرس بين القوى التي تتنافس في أفريقيا لبسط هيمنتها موظفة عوامل فكرية وثقافية وعلى رأسها اللغة، حيث تسعى الثقافة الأنجلوسكسونية إلى احتلال المواقع التي كانت في حوزة الثقافة الفرنسية في كل من منطقة البحيرات الكبرى وغرب أفريقيا.

٢- انظر مقرر مادة الاستشراق السنة الرابعة بكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية من إعداد د.أحمد محمد علم الدين.

٣- تقول د.سارة حسن منيمنة في كتابها: «في جغرافية العالم الإسلامي» عن هذه القضية: «لم يلزم الإسلام الشعوب والأقوام التي تدين بالإسلام بتعلم اللغة العربية، والتخلي عن لغتهم، لأنه لو فعل لضعفت الرسالة ومهمة تبليغها» دار بيروت المحروسة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

للتعارف في ظل الإســـلام الوارف الذي وسع الجميع، ومن ثمَّ لم تكن إشكالية التواصل التي نعيشـــها اليوم قائمة علـــى الإطلاق، وبعد أن خفت الوهج وخبا اللمعـــان اللذان كانا يجعلان الآخرين يندفعون تجاه العربية، لا لســـود عيونها وجزالة عباراتها وإنما للمحتوى الجديد الذي تشرفت بحمله وولادته.

وأمام هذا الواقع الفكري المنقلب، ألا يجدر بنا البحث عن «بدائل» أو إذا خففنا العبارة قلنا: «وسائط مساندة».

ردة ثقافية وشيكة

وحتى تتوافر لدينا القدرة على صوغ إجابة على مثل هذا السؤال، يحسن إلقاء نظرة استقرائية على أوضاع الشعوب المسلمة غير العربية تاريخاً وواقعاً لنقيـــس مدى متانة العربي الفكرية والثقافية التي تربطها بدولاب الحضارة الإســـلامية، وخضوعاً لضغط المســـاحة التي لا يتيح المناورة كثيراً، فلنأخذ الوضع الأفريقي كمجسم نقيس عليه الأنماط الأخرى صحة وضعفاً.

تعتبر أفريقيا أول شـــعب ســـلكه الإســـلام حين خطاخارج مكـــة محاصراً، حتـــى قبل الانتقال إلى قاعدة المدينة[1]، فكانت الحبشـــة المحطة الأولى، ثم شـــمال وغرب أفريقيا، ومع ذلك أنجرؤ علـــى القول: إن الواقع القائم يشرِّف تاريخنا هناك؟.

هل بحثنا بصورة جادة عن الدوافع الحقيقية التي جعلت قبائل بأكملها . لا نقول ترتد، لأن في ذلك إجحافاً وجنوحاً . تفقد الصلة بالإسلام، وتنسى نسبها العقدي الإيماني ولم يبق لديها إلا بعض الرسم وحروف متقطعة من

١- ومن المؤســـف أن الهجرة إلى الحبشـــة ومـــا خلفتها من آثار لا تزال تمثل ثغـــرة تاريخية لعدم نيلها ما تستحقه من دراسة وتمحيص من قِبَلِ الباحثين.

الاسم وتظل متمسكة ببعض الرموز الموهمة[1].

مـــا الذي جعل الضمير الجمعي يصاب بالضمور أو التجمد تجاه قضايا الأمـــة الكبرى حتى أصبح التفرج والمرور مرَّ الســـحاب هو أفضل ما يتوقع من أعضاء الجســـد الكبير عندما يكون ثمة مســـاس بكيان الأمة والمقدس لديها؟

وعند التأمل المستديم فلا يبعد أن تصدمنا الحقيقة المرة.

فالخلل المشترك يتمثل في انبتات الصلات مع الجذر الذي كان يولّد، يوم كان انغراسه غير سطحي الانفعال والفعل الإيجابيين المنبنيين على الاختيار والترجيح المصطبغين بحرارة إيمانية غير مفتعلة.

فكيف يســـري تيار الأخوة في أجزاء ممزقة، وفـــي غيبة أداة التخاطب والتفاهم.

والقصـــد هنا هو المصـــدر الذي تنطلق منـــه تيارات التغذيـــة الثقافية وتتقاطع عنده، ومن المحزن أن نجد أن ثقافات الشعوب المسلمة في أفريقيا تنأى بازدياد عن الإســـلام بقدر ما يتكاثف الدخن الذي ظلت هذه الشعوب دهوراً في منـــأى عنه، إن الطنطنة عن الدعوة والتنصير والتهويد صرخات في أودية ســـحيقة إذا لم نتدارك نهجنا ورؤيتنا للطرائق التي نوظفها لوصل الشعوب بتيار الوعي بشقيه.

١- يورد د .عبدالرحمن السميط في كتابه «رحلة خير إلى أفريقيا» صوراً واقعية تجسد المأساة التي عاينها في جزر «المدغشـــقر» وغيرها من المناطق التي كان للإســـلام فيها وجود ثم اضمحل، ويبذل الرجل اليوم جهوداً خارقة لإعادة رسم الصورة المتحطمة.

الانتقال إلى المقايسة

أمن جميل الولاء للإسلام أن نظل قابعين داخل جحور الاحتجاج والتهويل، بينما تتقاتل الملل والنحل لكسب الشعوب عن طريق استمالة القلوب واستئناس الأفكار، بعد كسر الحواجز النفسية التي كان قد شادها الإسلام، متسللة إليها عبر كوّة اللغات والثقافات والموروثات لزحزحة تلك التي هي من صبغ الإسلام؟!.

إن رفع الحجب بين الإسلام في مصدريه الأصليين، وبين الشعوب غير العربية تأتي كامتداد لعملية التفسير الذي صاغه الشارع لتقريب الوحي بشقيه إلى المخاطبين، ولقد فطن بعض المشتغلين بقضايا الأمة إلى محورية القضية فأحسن التعبير، حين قال: «إن إزالة حيلولة الذين يستغلون الدين بين الشعوب المسلمة غير العربية، وبين القرآن وتمثيله بنصوصه المترجمة أمامهم، ليكونوا على بيِّنة من كتابهم في عصر تكافح (فيه) الأديان والمذاهب، وتحريم الترجمة والأخذ بالتراجم يعد جبناً، وفراراً بكتاب الإسلام (القرآن) عن ساحة المقايسة بالكتب الأخرى)[1].

جولة الحروف والخسارة الحضارية

وفي غفلة منَّا، يخوض خصومنا اليوم معركة حامية الوطيس مع الوجود الإسلامي المتجذِّر في أرض أفريقيا، والتي يمكن اعتبارها امتداداً لمعارك أخرى بدأت بمحاولة الطعن في ثبوت ومصدرية القرآن والسنَّة، ومروراً

١- «مسألة ترجمة القرآن» للشيخ مصطفى صبري، نقلاً عن مقرر مادة الاستشراق، سبقت الإشارة إليها.

بإحـــلال العامية محل الفصحى، وانتهاء إلى فرض الحرف اللاتيني بعد إزاحة الحـــرف العربي تمهيـــداً لوصل هذه الثقافـــات بالعربة الأجنبية «الغريبة عليها»، بالأمس خســـرنا لغات في تلك البلدان الإســـلامية التي رزحت عقوداً تحت نير البلشـــفة البغيضة والحاقدة على كل ما يمتُّ إلى الســـماء بصلة، حيث أحلَّت بعد سلســـلة من الخطوات المكَّارة الروســـية محل اللغات الإسلامية[1]، واليوم نعرج في أفريقيا على فصول مسرحية الاندحـــار الدامغـــة بإحلال الحرف اللاتيني بدلاً مـــن العربي وربما من الصحيح أن نقول إن القوم فازوا بجولة «الحرف» لغياب المقارع.

ومن أســـباب الخداع إقناع الجماهير بأن نعمـــة كتابة اللغات الأفريقية منة أوروبية بينما دفوف التاريخ تئط بإنتاج إفريقي ناضج على صهوة اللغة والحرف العربيين، يروي لنا «فنســـامونتاي» نتفـــاً جيدة في هذاالباب، كما رأينا.

أما الخسارة الحضارية التي ستخلفها سيطرة الحرف اللاتيني فلا يمكن تقديرها لأن ذلك يعني بكل بســـاطة قطع الصلة بين الشعوب المسلمة وبين تراث ناضج وتاريخ أثيل عمرها عشرات القرون، من ثم يتم إحداث القطيعة الثقافية الفظيعة التي ستسلخ جسم الأمة لينزرع في الفراغ الذي سينتج من ذلك لا محالة، نمط ثقافي مغاير ينكره الناس، ثم يألفونه.

إن الســـعي إلى تأصيل الفكر الإســـلامي خارج البيئة غيـــر العربية مع

١- للتوسع عن هذه القضية انظر كتابات د.مصطفى الطحان، عن هذه المنطقة.

حصر الآليات الثقافية على اللغة العربية قد تتصادم مع مفهوم، وإن لم يكن المقطوف الآية الكريمة ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾[1].

مقارنة بين صورتين

كثيراً ما تساءلت عن سر الفارق الرحب بين مستوى التجذُّر الذي أحرزه الوجود الإسلامي في آسيا غير العربية وبين الوضع في أختها أفريقيا التي تشهد اليوم إرهاصات ردة ثقافية يخشى أن تكون واسعة الأرجاء، مع أن العامل التاريخي يحسب للأخيرة؟

وبعد استبعاد العنصر الجغرافي الذي يكاد الجانبان يتساويان فيه، تراءى لي أن البعد اللغوي الذي جمع بين التزاوج والاستقلال في آسيا قد خدم الشعوب الآسيوية كثيراً، والذي نقل الممارسة الثقافية الفكرية من الاقتباس إلى وضع المرجعية والمساهمة.[2]

وقد يكون لطبيعة الاستعمار الذي تعرَّض له كل من المنطقتين دور في المسألة، حيث أدت السياسة الفرنسية الثقافية، والتي تقوم على ركوب القارب ثم تحطيمه إلى تجفيف الينابيع الثقافية الإسلامية تمهيداً لردمها نهائياً، بخلاف الإنكليز الذين يسلكون نهجاً آخر يؤدي إلى نتيجة مقاربة طبعاً.

١- سورة إبراهيم:٤، ولقد استخرج العلامة القرضاوي من الآية مفهوم «ثقافة القوم المرسل إليهم»، وهو تخريج يتناغم مع ما يليه «ليبين لهم» انظر كتابه «ثقافة الداعية» أيتأتى التبيين في غيبة من قنوات التواصل والتحاور، واستغلاق النص أمام المرسل إليهم؟!.

٢- تختزن المكتبة الإسلامية العربية اليوم أعمالاً رائدة مترجمة من الأردو وغيرها.

الواجب تجاه الجرف الثقافي

ومن نافلة القول، تبيان أن القوالب والأطر لا تمثِّل إلا ممرات وسراديب إلى فرض مضامين ومفاهيم تتصادم مع المخزون التاريخي، لهذه اللغات عن طريق الاستفادة من القطيعة الثقافية التي أصبحت وشيكة الوقوع، ومن ثمَّ يسهل ابتلاع الأجيال الصاعدة وجرفها بعيداً عن تخوم القرآن الذي سينتصب ألف حاجز ومليون برزخ بينه وبين واقعهم.

ومرة أخرى يواجهنا السؤال:

ما الذي يتوجب عمله أمام هذا الجرف الثقافي الهائل الذي يكاد يبتلع تاريخنا وواقعنا ليلغي المستقبل؟

يحزننا أن نعترف بأننا قوم مردوا على استخدام المستهلك الذي انتهت صلاحيته في مجال آليات الصراع، حيث نتأفف حتى إذا قضى الخصوم أوطارهم تلقفنا المخالفات، وأقرب مثال هو العمل الخيري المؤسسي، فحين انتبه بعضهم إلى خطورة هذه الأداة وبدأوا يدقون باب العمل الخيري، انتقل القوم به إلى أفق أعلى يحظر علينا تسلقه[1].

قد يجادل بعضهم بأن توظيف اللغات الأخرى في مشروع كوسائط لتأصيل الفكر الإسلامي في البيئات غير العربية لا ينسجم مع مطلب التعريب، نستطيع محاججة مثل هذا المنطق من محاور عدة، لكن يكفي الإشارة إلى مسائل:

١- لقد أصبحت المؤسسات الخيرية الغربية اليوم قوى ضاغطة تفرض حضورها داخل المنتديات الدولية كالجمعية العامة للأمم المتحدة وتسلط سيفها على الدول والأنظمة وينظر إليها كبعبع لا يقاوم.

أولاً: فالأسلمة . خارج البيئة العربية على الأقل . مقدمة على التعريب كهدف.

ثانياً: إن هذه اللغات تعتبر . في الوضع الصحيح . ظهيراً للعربية، كما وقع ذلك تاريخياً، لأن المضمون الإسلامي سيحولها إلى قناطر لعبور الشعوب إلى العربية، لأن المحتوى الجديد سيجعلهم يتوقون إلى معاينة المصدر، وبالتالي فإن الترجمة إلى تلك اللغات تجعلها رديفة للعربية وروافد لها وليست المشاكسة.

ثالثاً: إن صون العربية «قضية» مفروغ منها في حسِّ تلك الشعوب، وفوق الضمان القرآني، يأتي الواقع المتناهي . رغم البقع القاتمة . ليؤكد على ذلك، ولا تزال الدراسة تلو الدراسة تصدر لتدعم وجهة النظر هذه، ولقد توصل عالم اللغات الأميركي «روجر فشران» في دراسة حديثة له إلى توقع تناقص عدد اللغات في العالم - بالاندماج والاندثار - من ٦٨٠٠ في الوقت الحاضر إلى ١٠٠ خلال ثلاثمئة سنة، وستكون العربية من ضمن تلك التي ستصمد.[١].

الخلاصة

إن القيام بتقريب الأصول الإسلامية إلى هذه الشعوب ليعتبر، بكل المقاييس، من أكبر المهمات الحضارية التي نستطيع بها خدمة الأمة في

١- جريدة السياسة البيروتية عدد ٨٥٦٨، بتاريخ ٢٠٠٠/٤/٣م، كما يُراجع كتاب «الفصحى لغة القرآن» تأليف الأستاذ أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م.

عصر ذوبان السـدود الثقافية، وطغيان المؤثـرات الفكرية المقتحمة لواقعنا الداخلي الذي لم يعد محصناً فكرياً ولا عقدياً.

وشـرط الأساس هنا للنجاح أن نكون إيجابيين، فبدلاً من التباكي وذرف الدمـوع على صفحات الجرائد والدوريات لتأبـين الآلاف الذين تتخطفهم آلات التضليل في أفريقيا وآسيا، لِمَ لا نضيء ولو شمعة واحدة نبدد الظلام حتى نمنع الخفافيش من استغلال ثقافة الظلمة؟

ونشير هنا إلى بعض الأسس التي نستطيع الاستفادة منها:[1]

- تشجيع ودعم الجهود الخيِّرة التي تقوم بها المؤسسات الإسلامية في هذا المجال.
- تبنِّي مشروع خاص لترجمة معاني القرآن الكريم والسنَّة النبوية إلى أهم اللغات الإسلامية تحت رعاية مؤسسات علمية متخصصة وجادة.
- إنشاء إطار متخصص لجمع واستغلال التراث الإسلامي الإفريقي المكتوب باللغة والحرف العربيين، حيث آلاف المخطوطات مهددة بالضياع والسرقة والتزييف.[2].

١- هذه العناصر مستلة من مقدمة مشـروع ابن عباس لترجمة معاني القرآن الكريم والسنة النبوية إلى اللغات الأفريقية، إعداد الشيخ بون عمر لي ومحمد سعيد باه.

٢- ومن أسـوأ الإمثلة ما قام به الصهاينة في نقل وثائق إسـلامية ثمينة من دولة أفريقية مسـلمة إلى إسـرائيل بهدف الترميم والصيانة، ثم إعادة نسـخ مزيفة بعد تحريفهـا. انظر: الاخطبوط اليهودي يستهدف الوجود الإسلامي في أفريقيا. محمد سعيد باه.

- إلى جانب تطوير الحرف العربي، يجب الاهتمام وتشجيع الإنتاج بالحرف اللاتيني الذي أصبح واقعاً يجب التعامل معه بعقلانية وواقعية.

- جمع ومراجعة وتنقيح ترجمات القرآن الكريم الموجودة، والتي يمكن أن يستغل خصومنا ما فيها من قصور يصل إلى حد التحريف أحياناً.

- التعامل مع القضية بجدية عن طريق التأطير والهيكلة والتفعيل على غرار ما فعلته رابطة العالم الإسلامي بمسألة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وبعد، فحين نضع القرآن الكريم في متناول الشعوب المسلمة التي تعيش خارج البيئة العربية نكون قد حققنا أهدافاً استراتيجية كبيرة أهمها:

- تحصين تلك الشعوب، وبالتالي نقلها إلى حيز الفعل بدلاً من الانفعال.

- فتح الباب أمام الملايين الذين لا يمكن أن نصل إلى الدعوة إليهم إلا باتباع هذا الطريق وفوق ذلك نكون قد أدينا الشهادة على الوجه الصحيح.

﴿إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ الدخان:٤٤.

الذات السوية
معبر النهضة والتقدم
قراءة في الأزمة مع الذات والآخر (*)

الدكتور/ أحمد عيساوي - الجزائر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٨٣ ص٤٧

لـم يعد خافيا على الملاحظين والمتتبعين والمهتمين مـا تعانيه البشـرية اليـوم من حالات الانهيار القيمي والروحـي والأخلاقي، الذي مـس بعمق جميـع ميادين حياتها، واجتاح بقوة مختلف مجالاتها ونشـاطاتها، ودوائـر الفاعلية والتأثير القيمي فيها، على جميع الأصعدة الجغرافية والديمغرافية والإمكانية والكيانية، محليا وإقليميا وعالميا. الأمر الذي أدى بها مع مطالع الألفية الثالثـة إلى كثير من التداعيات والانهيارات المتلاحقة، على مسـتوى أنسـنة الإنسـان، وروحانيته، وخصوصيته، وقيميته الفرديـة، والجمعية، والاجتماعية والأممية مصداقا لقوله تعالى: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون**﴾ (فاطر، ٨).

وقـد بدا ذلك واضحا فـي حال التعامل التدميري والنيروني - نسـبة إلـى الإمبراطـور الروماني «نيرون» الذي حرق روما - مـع الذات والآخـر معا، ومن خلال ممارسـة عمليات السحق السـافرة لعوالم القيم والمبادىء والمثـل العليا في واقع العلاقات الشـخصية الجمعيـة والاجتماعية. الأمر الذي يسـتدعي وقفة فاحصة ومتأنية لمسـيرة القتل والإجرام العشوائية - من حديث رسـول الله ﷺ عندما سـئل عن علامات الساعة قال: فارتقب القتل-لسـلم القيم الأخلاقية في شبكة العلاقات الاجتماعية المنهارة اليوم، بفعـل عمليات العبث الجنوني بالمخـزون التراثي والقيمي الذي كان يحكم شـبكة العلاقات الاجتماعية التقليدية قبل طغيان موجة الحداثة، وما بعد الحداثـة، وأوهام نهايـة التاريخ، وخرافـة النهايـات الوهمية، لتي طفحت بهـا الكتابات عن نهاية المثقف والثقافـة والداعية والدعوة والمؤرخ والتاريخ

والفيلسوف والفلسفة، ونهاية القيادة والدولة، ونهاية الحدود والمتمايزات.. ونهاية عالم القيم والمثل العليا، وتراجعه أمام طغيان سيول وركامات الرذيلة والانحلال التي غمرت بقوة إنسانية إنسان الألفية الثالثة المنهار، عبر ما أفرزته فتوحات العولمة القسرية والفلسفة الإلحادية المفروضة على الأمم الضعيفة اقتصاديا وماليا، والمسلوبة حرية الإرادة والتأثير القيمي، تحت ضغط قوانين المنظمات والهيئات الدولية، ودسائس القوى الخفية المتحكمة في موارد العالم ومصير البشرية، عبر شبكة كثيفة من الوسائل والقنوات والأساليب الساحرة للألباب والأخاذة للأرواح وللقيم.

الأمر الذي أفرز لنا فردا جديدا هجينا عاث قتلا وتدميرا بإنسانيته، حتى صار من الصعب تصنيفه ضمن دوائر مخلوقات الله تعالى - ملائكة وجن وشياطين وحيوانات ومخلوقات أخرى - لمشاركاته المعقدة والهجينة الطاغية مع عوالمها المادية والبهيمية.

وقد تولدت لدى هذا الفرد - المتحلل والمتداعي - سيول من الأزمات المتشعبة والمتعددة التأثير على إنسانيته وروحانيته القيمية، بدءاً من أزمته النفسية الكبيرة مع ذاته، مرورا بسائر الأزمات المعقدة مع الآخر، مستحقا بمخالفته تلك عقاب ربه الذي استخلفه في هذه الأرض، واشترط عليه بالخيار الحر مصيره المحتوم فـ ﴿**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خسارا**﴾ (فاطر، ٣٩).

وستقدم هاته الدراسة قراءة عقلية وروحية ونفسية هادئة وسريعة لأبعاد الأزمة العميقة مع الذات ومع الآخر، وكيفية الخروج النظري والعملي

الجـذري من أحابيلها، وفق مقاربات تحليلية فـي عمق دوافعها الحقيقية، وأسـبابها القريبـة والمباشـرة، وآثارها الرئيسـة والجانبية، وفق نسق من المحـاور الواقعية ذات الصلة العميقة بأبعادها وأركانها المُشـكلة لها، والتي تُعد - بحسـب قراءتنا المتواضعة - المدخل الحقيقي والمباشر لفهم وإدراك أبعـاد وأهداف الخطـاب القرآني بموضوعاته المختلفة والشـاملة للعقائد والعبـادات والمعاملات والأخـلاق والقصص والأخبار والحـلال والحرام، المتنـزل على الفرد محور التنزيل والفهـم والتكليف والتطبيق، منطلقين من قوله تعالى وهـو يخاطب الذات السـوية بقوله: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسـوله أمرا أن يكون لهـم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾ (الأحزاب، ٣٦).

■ أبعاد الأزمة مع الذات

١ - الأزمة مع الله

عندما يفقد الإنسان وعيه بوجوده ورسالته الكبرى في الحياة تبرز أنواع الأصنام ماثلة أمامه تزين له وضعه التنافسي الجديد مع خالقه. الأمر الذي يفقده الإحسـاس الكلي بحقيقة المهمة التي خلق وأوجد من أجلها في هاته الحياة، وهي الاسـتخلاف الإيجابي، والعبادة المطلقـة، والعمارة التفاعلية والجميلة مع تراب الأرض في البر والبحر والجو.

﴿**وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمـون. إن اللـه هو الرزاق ذو القـوة المتـين**﴾ (الذاريات: ٥٦، ٥٧، ٥٨)، وهـو الآخذ عهد أبينا آدم علينا، والقائل عن خلقنا وإنشـائنا، وعن مهمتنا

التعميرية المتميزة في هاته الأرض: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ «هود -٦١»، ولكن للأسف الشديد نسي بنسيان أبينا آدم المناطات وبنود العهد الأولي، فخارت عزائمه ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما**﴾ «طه -١١٥»، وحقق بإفسادنا ونكولنا ونسياننا الأرعن نبوءة الملائكة عندما خاطبت ربها قائلة: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ «البقرة، ٣٠».

وبات يضحي هائما في ضبابية إدراك غايات وأبعاد وجوده، وفقدان مناطات المهمة الرسالية الكبرى. ومن هنا تنشأ عنده أكبر المشكلات وهي الأزمة مع الخالق، والموجد والمنعم، وعنها تتركب سائر مظاهر الأزمة لديه ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه**﴾ «الجاثية -٢٣»، فأفسد برعونته مسيرة حياته الزاهرة، وتعدى فساده إلى البيئة والأفراد المحيطين به، فعدا عليهم بفساده محققا قول الله فيه: ﴿**واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا**﴾ (الفرقان٣).

وبذلك يتعمق خط الأزمة مع الخالق، دونما رجعة واعية للموقع الصحيح، إلاّ بحبل من هدى الله وأسباب هديه من الأئمة الأعلام، وإلاّ فقد حقت عليه الكلمة وحبط عمله في دنياه وآخرته ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**﴾ (الفرقان: ٢٣).

وهذا وجه الأزمة المهم والخطير في عمق الذات ومع الذات، وعنه يتفرع خط الأزمة الكبرى مع الذات المضطربة المختلة، ومع الآخر السوي أو المختل.

٢ - الأزمة مع الذات

وبعد أن تشتد أزمة الإنسان مع ربه لجهله بقيمة رسالته، وحجم وحدود طاقته، ومكانة نفسه، وموقعه في الحياة الدنيا، فتسوء حاله مع أعماق نفسه، وتضطرب قيم وجدانه وضميره، وتختل حساسية مشاعره، بفعل تراكم الأمراض النفسية المميتة، وتفاعل الأسقام الدفينة فيه، التي تفاقمت على قدراته المناعية الضعيفة فعطلتها، فيتيه في دوامة الفراغ والقلق، ويحيد عن معالم النور والحق، التي ينطق بها الصالحون في قوله تعالى: ﴿**قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمّا جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين**﴾ (غافر : ٦٦).

ويؤول أمره بعدها إلى حال التوتر الدائم، الذي يقطع جذوره عن حقيقة وظيفته التعبدية. ويصبح عرضة للقلق والاكتئاب، ومنها يفقد توازنه النفسي، ويضطرب وجدانه، ويخسر فضيلة التوافق الاجتماعي مع الآخر، الذي كان يضمن له صيرورة الحياة الهادئة الآمنة المطمئنة، لأنه يصبح دائراً في فلك جماعة مكتئبة ومريضة ومتأزمة مثله.

ويعيش بعدها في حال تذمر وسخط وعدم رضى، كما هو أمر وحال السائرين وراء وهم الحداثة وما بعدها، من دون الحصول على سراب اللذة المبتغاة محققين قول الله وحكمه الممضي فيهم حين خاطب آباءهم الأولين فقال: ﴿**يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنى تؤفكون**﴾ (فاطر: ٣).

وهذا وجه الأزمة الثاني والمهم والخطير في عمق الذات المضطربة، ومع

فلول الذات المختلة، المتبقية في أشلاء ذلك الهيكل البشري، وعنه يتفرع خط الأزمة الكبرى مع عالم القيم والمثل العليا المفقود في الذات المتأزمة، ومع الآخر السوي أو المختل.

٣ - الأزمة مع القيم

وبعد أن تستحكم فيه بقوة جذور الأزمة بينه وبين خالقه من جهة، وبينه وبين نفسه المضطربة من جهة ثانية، تحتدم لديه في العمق أزمة القيم والمثل العليا، ويضطرم بها في أعماق ضميره المتألم المريض، الذي بدأ يخسر ما تبقى من الفضائل المعدودة لديه، بفعل عمليات التزيين الاستهوائية التي يستمرئها في حياته، بحثا ولهثا عن وهم وسراب اللذة والسعادة البديلة التي تسلمه للخسران المبين ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون**﴾ (فاطر: ٨).

ومن حاله المنهارة تلك يهون في نظره كل خلق ومثل كريم، ويحتقر الفضائل والمبادىء التي ضحى من أجلها الأنبياء والصالحون والشهداء والمجاهدون، وتصبح ثوابت الأمة ومقدساتها، وسلامة الوحدة الوطنية والترابية، وسلامة الحدود والوطن، وسلامة سائر الثوابت الوطنية الأخرى: من دين، ولغة، وشرف وعز، ومجد تليد، وتاريخ غابر، وثورة مجيدة، وجهاد ومجاهدين، وشهادة وشهداء وثكلى وأرملة ويتيم ومعطوب ضحى في سبيل الله ونصرة دينه وعزة أمته لا قيمة ولا وزن لها، بل إن أمرها ليهون لو فقدت قيمتها فقط لديه، ولم تعد هدفا وغرضا يعاديه في الحياة، بل تصبح عدوا استراتيجيا له في حياته، يقضي ما تبقى من عمره لسحقها

وهزيمتها، لأن البيئة المتخلفة تهزم العز والشرف، وتغتال بصمت أثيم القيم والمثل الفاضلة.

وهكـذا يؤول أمره إلـى الضياع الكلي، لأنه أصبح فـارغ الوجدان ميت الضمير من معاني هذه القيم النبيلة وتأثيراتها، ومن هنا تنشـأ لديه الأزمة مـع قيمه ومثلـه العليا محققا قول اللـه تعالى فيه: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور.**﴾ (فاطر: ١٩، ٢٠).

ومن هنا تشكل الأزمة مع الذات المعبر الحقيقي والمباشر للأزمة العميقة والقوية مع الآخر السـوي أو المتأزم، لتأخذ أبعادا وأشـكالا وألوانا ووسائل وأسـاليب أخرى، تفضـي بالفرد والجماعة والمجتمع المتأزم إلى التلاشـي والضياع، أمام الآخـر المتماسك القوي.

وهذا وجه الأزمة الثالث والمهم والخطير في عمق الذات المضطربة، ومع فلول وبقايـا الـذات المختلة، التي فقدت كل عناصر الجمال والخيرية التي أودعهـا الله فيها، يتفرع خط الأزمة الكبرى مع الآخـر السـوي أو المختل، الذي لا يتنبـه إليه كثير من الغافلين.

■ أبعاد الأزمة مع الآخـر

وأبعاد الأزمة مع الآخر هي نتاج طبيعي ومنطقي لوجوه الأزمة مع الذات، فمـن تأزم مع ربه فقد أعلن بغباء القطيعة مع مصدر الخيرية المطلقة التي يسـتمد منها حيويته وقوته للسـيطرة والتمايز العاقل والرشـيد عن عالم

الموجـودات والكائنـات والأحياء وسـائر الجمادات، وانحدر إلى مسـتوى البهيمية ليتشـارك معها في غشيان المراتع والنزوات، يسيم منها كما تسيم ذوات الأربـع، محققا قول الله تعالى فيه: ﴿**إن هـم إلا كالأنعام بل هم أضل سـبيلا**﴾، «الفرقـان -٤٤» غير أن الله ضرب أجـلا بعد الابتلاء الدنيوي لنشر الصحائف، وإلاّ عجل لهم العذاب، إذ قال: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسـبوا ما تـرك على ظهرها من دابـة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسـمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا**﴾ (فاطر: ٤٥).

ومن تأزم مع نفسـه فقد ألقى بها فـي أتون الاجترار اللاواعي والأرعن لكنه ولب الحياة ولذة متعتها، وأعلن سـوداوية أيامه ومأسـاوية خاتمته. إذ بأزمته المتعددة الأبعاد حطم مقومات نفسـه، وهشـم فضائل الخيرية التي عششـت في أعماق ضميره، الذي به يكون إنسـانا يفيـض بالروح وينبض بالحياة والحيوية..

ومن تأزم مع قيمه ومثله وثوابته فهو المتأزم الحقيقي، والخشية أن تتعدى هـذه الأزمة من حدود الفردية فتمس شـبكة العلاقـات الاجتماعية، التي تحكم ربط الجماعات ببعضها بعضاً خلال سـائر النشـاطات الاجتماعية. وهنـا يضطرب سـير الجماعة ويختل توازنها المحكـم، فتفقد قدرتها على تكوين الأجيال السوية، التي يحتاجها المجتمع لاستمراره.

١ - الأزمة ضمن محيط الجماعة

تأخذ الأزمة بتعقيداتها المتنوعة والمتشابكة الـذات المتأزمة ضمن دوامة لانهائية من التداعيات المتأزمة مع الآخر، وأول مظاهرها التأزم ضمن نطاق

المحيط الأســري، حيث الاحتكاك الدائم والمباشر للذات المتأزمة مع الآخر الســوي أو المتأزم. الأمر الــذي يؤدي إلى إفراز نمــط ثنائي من العلاقات المتأزمة.

فمع الآخر الســوي تبرز بوضوح تداعيات الأزمة في أبســط العلاقات والتعاملات الحياتية اليومية، وهنا يتأزم الآخر السوي لاحقا - بشكل أو بآخر - بفعــل عملية التأثير والتأثر المباشــرة، فتنتج لنا نمطا متأزما من العلاقة محــوره ضلال وانحراف الذات، باتباعها الهوى والرغبة فيما توســوس به النفس التي لا تصغي لنداء ربها فتهتدي محققة قوله تعالى فيها، إذ يقول: **﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليَّ ربي إنه سميع قريب﴾** (سبأ: ٥٠).

ومــع الآخــر المتــأزم تبــرز بوضــوح أيضا تداعيات الأزمــة وتعقيداتها الجديدة في أبسط السلوكات والعلاقات والتعاملات اليومية، بفعل عمليات التأثير السلبي، والســلبي المضاد بين الذاتين المتأزمتين، والتي تبرز بجلاء مــن خلال فهم الحياة، والتعامل معها وتكوين القيم وفق الرؤية الشــخصية الضيقة، كفض النزاعات والاختلافات بالتحاكم إلى أطر ذاتية غير متعارف عليها في مرجعيات المجتمع السوي المختلفة من: دين وعرف وقانون وضعي، وعنها ينتج نمط هجين ومتأزم من العلاقة.

ويتضخــم تأزم الذات من مســتوى علاقة الفرد المتــأزم بذاته وبالآخر، ليأخذ طابع التأزم على مستوى علاقات الجماعة، وبدايتها تكون مع جماعة الحي حيث يتم الاتصال والاحتكاك المباشــر بين أفراد الجماعة الســويين والمتأزمين، الذي ينتج تلقائيا نمطين مــن العلاقات الاجتماعية، إحداهما:

نمط صدامي يُفعّل الصراع بقوة بين الذوات المتأزمة في جماعة الحي، وثانيهما نمط انعزالي يُفعّل قيم الفردية والأنانية والتباعد بين جماعة الحي، وهكذا الأمر مع جماعة المسجد والعمل وسائر الجماعات التلقائية والعرضية، وهنا ينطبق على الفرد والجماعة المتأزمة قوله تعالى: ﴿**من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور**﴾ «فاطر-١٠»، فطاعة الله تعالى في الآية هي منطلق العزة والكرامة والعلاقة السوية مع الذات والآخر، لأن أكرم الناس عند الله التقاة لقوله تعالى: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ (الحجرات : ١٣)، حيث يتقبل الله الكلم الطيب والنافع، ويرفع إليه العمل الصالح، اللذين هما صماما الأمان لشبكة العلاقات الاجتماعية السوية بالذات وبالآخر سواءأ فردا كان أم جماعة، وحيث إن الكرامة لا تتحقق إلاّ بالتقوى الكلية لكل مزالق التأزم، التي تستحكم في أعماق الفرد فتخلق منه فردا مكرما معززا، وبفقدانها يغدو نحو شفير هاوية التأزم، والتأزم السلبي المضاد نحو الآخر السوي أو المتأزم.

٢ - الأزمة ضمن المحيط الاجتماعي

عندما تأخذ الأزمة بقوة شبكة العلاقات الاجتماعية فتدمرها من الداخل والخارج، تأخذ العلاقة مع الآخر في عملية التفاعل والتأثير والتأثر الاجتماعيين نمطا متأزما يبدو واضحا في شبكة العلاقات الاجتماعية - العرضية والتلقائية والمقصودة - المتأزمة في الشوارع والأسواق، وفي

الحدائـــق والمنتزهات، وفي أماكن التثقيف والتســـلية والترفيه، وفي ســـائر مصالح ومؤسسات الدولة.

ويصبـــح التواصل مع الآخر ضمن أنســـاق ســـلوكية متأزمة تختلف عن روح النســـق المدني الراقي. فعلاقة الذات المتأزمة مع رجال الأمن والشرطة بعامة، مع شرطي المرور بخاصة تتحول بسبب الأسقام الداخلية والأمراض والعقـــد النفســـية إلى علاقة خوف وحـــذر وريبة، مخالفـــة بذلك منطقها الاجتماعي الأمني الســـوي. وكذلك الأمر مع عمـــال النظافة وحفظ البيئة وموظفـــي مراقبة عدادات الكهرباء والماء والغاز. وينقطع بســـبب تراكم ثقل الأســـقام والعقد الدفينـــة وتفاعلها المرضي المتفاقم في نفســـية المتأزم كل أشـــكال التواصل السوي بالآخر الســـوي، تحقيقا لوصفه سبحانه وتعالى لهـــذا الصنف المتأزم من بني البشـــر حيث يقول: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنَبِئُك مثل خبير**﴾ «فاطر- ١٤».

٣ - أزمة فهم حدود الحقوق وسقف الحريات

تنتـــج الأزمة ضمن المحيط الاجتماعي أزمة فكرية ونفســـية وســـلوكية أخـــرى تتفرع عنها أزمات اجتماعية وتربوية وأخلاقية ونفســـية وســـلوكية جانبية، تـــؤدي إلى حال من الانســـداد الاجتماعي ضمن النســـق المنســـجم للعلاقـــات الاجتماعية للأفـــراد والجماعات وذلك ناتج مـــن حال الانهيار القيمي للذات المتأزمـــة، العاجزة داخليا لضبط معادلـــة فهم حدود الحقوق وســـقف الحريات، وعملية التناغم المنسجمة بينهما في تسيير الفرد السوي ضمن نســـق العلاقات الاجتماعية الســـوية، فيتحول إلى كائن أناني مغرور

وفاقد لكل الأحاسيس والمشاعر الجمعية، فلا يعرف من الجماعة التي يعيش معها سوى المطالب والحقوق، أما الواجبات تجاه الجماعة والحقوق الأكيدة نحو الآخر، فهي مساحة فارغة من ذاته، وقيم غائبة من روحه.

٤ - أزمة التواصل مع البيئة

وكما تنتج الأزمة القيمية أزمات جانبية، تتفرع عنها الأزمة مع النبات والزروع وكل ما هو أخضر ورطب ويابس من الكائنات النباتية الحية التي تجاور الذات المتأزمة ضمن نطاق المحيط البيئي. ومن هنا نلاحظ السلوك المرضي الاجتماعي المتأزم للذات العليلة تجاه عالم النباتات عموما، فهي تحتاج إلى توعية دائمة ومستمرة كي تحافظ على علاقتها السوية بها، مكلفة الجماعة ثمنا ماديا ومعنويا باهظا عبر مختلف وسائل الدعاية والإعلان، كي يستقيم سلوكها مع النسق السوي للمجتمع.

وكذلك الأمر المرضي للذات المتأزمة مع عوالم الحيوانات الأليفة والمتوحشة في الغابات والصحاري والمياه وسائر مكونات البيئة الطبيعية. إذ تتفاعل الذات العليلة مع محيطها الطبيعي تجاه عوالم الحيوانات المجاورة لها بسلوك مرضي استئصالي متأزم، تحرق من خلاله الأخضر واليابس، وتطارد أو تقتل كل كائن حيواني حي، أسهم أو مازال يسهم في عملية التوازن البيئي والضروري لاستمرار الحياة.

وهكذا يكون سلوكها المرضي المتأزم مع سائر مكونات العمران ومختلف وسائل الحضارة. فبعد أن كان - ومازال حسب فهمنا المتواضع - مفهوم الحضارة الصحيح منصبا على ضمان القدرة لصناعة كل منجزاتها وأدواتها،

ثـم التحكم فيها، نتجت عنها عملية أخرى، تمثلت في التخلص الصحي من نفاياتهـا وفضلاتها. وهنا تحتاج الحضارة وقيمها المدنية والمعنوية إلى ذات سـوية للتعامل معها، حيث تتسبب الذات المتأزمة في خلق مشكلات جديدة للصيرورة الحضارية، فلا تُحسـن التعامل السـوي للتخلـص من نفاياتها بالطـرق الحضارية، فتعيق المسـيرة الحضارية للأمة، وتنشـغل الأمة هنا بترقية وتنمية الملايين من الذوات المتأزمة فيها على حساب التعجيل بوتيرة التنميـة الحضارية، فتتقدم أمم وتتأخـر الأمة المصابة بمثل هذه الأمراض المستحكمة في ذواتها العليلة.

وخلاصة المسـألة : أننا أمة متأزمة وقلقة ومتوترة ومعادية لكل شـيء. ويجـب علينا أن نتصالح مع كل شـيء. فالأزمة مع الآخـر هي لـب الأزمة مـع الذات، وهنا تحتاج الأمـة المتأزمة إلى اتفاق مبدئي - فيما بينها -على إطار مرجعي دقيق للحياة وللتواصل السوي، ولاستثمار المرافق، ولاستغلال وتقاسم الثروات بالعدل.

■ سبيل الإصلاح

وبعد أن عرضنا لأهم أركان الأزمة وأبعادها مع الذات والآخر، نحب أن نتوقف عند مشـاريع وأسس الحلول لأزمتنا العميقة. ولعل أس فهـم الأزمة وأبعادها يكمن في الاختلاف حول الإطار المرجعي المناسب والأصلح، لضبط إيقاع مسـيرة الحياة السـوية من جهة، وإيجـاد الحلول العملية والصحيحة للمشكلات التي تعيق سـبيل النهوض بالأمة المتأزمة من عثارها الحضاري نحو مصاف الأمم المتقدمة، آخذة بعين الاعتبار أصناف البشـر، ومكوناتهم وطبيعتهـم ومواقعهم في عمليـة النهوض، لأهميتها التأسيسـية والعملية

والهدفيـــة في تحقيق نجـــاح عملية الإقـــلاع الحضاريـــة المطلوبة، مصداقا لقوله تعالى فـــي أصناف خلقه حين يقرر فيهم: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ (فاطر: ٣٢)، فهذه الأصناف رقـــم مهم في عملية الإصلاح والنهـــوض الحضاري، لايهملها المصلحون من خططهم الإصلاحية.

وعندمـــا يواجه المصلحون الأزمات المســـتحكمة في أممهـــم كثيـــرا ما يصطدمـــون بكيفية المواجهة والمعالجـــة والنهوض، حائريـــن بين مجموعة مـــن الخيارات الإصلاحية التي تصلح لمشـــروعهم، ويبدأ التســـاؤل لديهم، هل بالقاعدة أم بالبنية الأساســـية والوســـطى أم بأعلى الهرم نباشر عملية الإصلاح؟ أم ببعضها ؟ أم بها جميعا؟ وهنـــا يجدون أنفسهم أنهم أمام تراث عالمـــي زاخر بالنظريات الإصلاحية التي رشـــحت بها التجارب الإنســـانية خلال حركيتهـــا التاريخية، أشـــهرها وأكثرها نجاعـــة وصلاحية للنهوض بالواقع المتخلف النظريات التالية:

١ - نظريـــة الإصلاح الفوقي التي تبدأ من أعلى الهرم، والتي جربها بعض المصلحين المســـلمين في العصر الحديث، ولكنها فشـــلت بسبب عوامل داخلية وخارجية كثيرة جدا.

٢ - نظرية الإصلاح التحتي التي تبدأ الإصلاح من أســـفل الهرم، فتتعامل مع أســـس المشـــكلة التحتية، وتؤســـس البناء المراد ترميمه وإصلاحه مـــن العمق، وهـــي عماد عمل الأنبياء والمرســـلين والدعـــاة في عملية الإصلاح.

٣ - النظرية المختلطة المتوازية المتوازنة: التي تبدأ عملية الإصلاح فيها من طرفي الهرم، فسلطة تهبط وتعمل وتتفاعل وتنهض برفق وعزيمة، وتأخذ بيد مواطنيها نحو العزة والتقدم والكرامة، وقاعدة تنهض وتصعد وتستجيب للمؤثرات النهضوية، وتكون في مستوى الحدث التغييري. وهي أنجع النظريات الإصلاحية إن توافر الانسجام والود بين السلطة والرعية. ولن تنجح هذه النظرية، إلاّ إذا مهدت لها عمليات التغيير التحتية في قاعدة الهرم، التي تهيئ لها الأرضية الإصلاحية الناجعة في صميم الفرد، المعدن الخام لكل عملية تغييرية وإصلاحية.

■ ضوابط محاسبة الذات

حفلت المصادر التراثية العربية الإسلامية برصيد معرفي زاخر يتناول الإنسان، من حيث إنسانيته وروحانيته وقيميته، مفككة - بكل عمق ودراية - أبعاده الإنسانية الحقيقية، وسبل نجاح أنسنته في حياته الواقعية، وعوامل تفوقه على سائر المخلوقات، وقدرته على استمرار تجربته الإنسانية، وسيادته الراشدة على الطبيعة ومن يحيي فيها، مقدمة أدق وأصح الطرق والمناهج في تعامل الذات السوية والمتأزمة، والآخر السوي والمتأزم.

ولعل إلقاءنا الضوء على المنهج النبوي المتميز في إصلاح النفس ومراقبتها، بهدف استمرار حيويتها وروحانيتها ونفعها للناس في الدنيا، ونجاتها وفوزها بالجنة في الآخرة، ما يقرب لنا فهم طريق من طرق الإصلاح الشامل، ضمن الضوابط التالية:

١ - الضوابط الشرعية (الكتاب والسنة)

إن محور التنزيل الأساس لعلوم القرآن جميعها هو الإنسان، فالقرآن كله نزل بخصوص صلاح الإنسان وتكريمه ورقيه ورشده في رحلة ابتلائه الحياتية، ولم ينزل لسوى ذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**﴾ (الملك: ١،٢). وكذلك الأمر بالنسبة لعمل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقد انصب جهدهم الدعوي جميعه في سبيل تكريم الإنسان وإصلاحه والرقي به، فقد كان ينصح ويوصي خير الأنبياء وخاتمهم ﷺ بضرورة حفاظ الإنسان على إنسانيته في مسيرة ابتلائه الحياتية، فكثيرا ما كان يرد على لسان رسول الله ﷺ قوله: «اضمنوا لي ما بين لحييكم وفخذيكم، أضمن لكم الجنة» وقوله عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك هذا - وأشار إلى لسانه الشريف) أو قوله عليه الصلاة والسلام: (.. وما أكب الناس على مناخرهم - أو وجوههم - يوم القيامة إلاّ حصائد ألسنتهم..).

وقد حفل القرآن الكريم بالآيات البينات على المحاسبة الدقيقة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ (الأنبياء، ٤٧)، وقال تعالى: ﴿**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا**﴾ (الكهف: ٤٩).

كما حفلت السنة النبوية المطهرة بالكثير من التوجيهات البيِّنة حول

المحاسبة فقال عليه الصلاة والسلام: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)، وقول عمر رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم).

وفي هذا الصدد يقول الإمام أبو حامد الغزالي- ج ٦، ص ٦: «فحتم على كل ذي لب يؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وحظواتها، فإن في كل نفس من أنفاس الإنسان وقت هو محاسب عليه.. ثم ليستأنف البحث في أعضاء بدنه السبعة وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، فعليه مراقبتها ورعايتها، وعليه أن يحترس فإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم).

فالمسلم المؤمن الواعي الراشد، يضع نفسه ضمن منهج المحاسبة، ليضمن لها الحياة والسلوك السوي في الدنيا، والأوبة الهنية في الآخرة، وفق المعارج الخمسة التالية:

١ - **المشارطة:** وهي أن يضع الشروط التي افترضها الله تعالى عليه، وسنتها سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أمام عينيه، ويلزم نفسه بها، ويكون ممن يشترط على نفسه في وقت الرخاء، حتى يتنعم وقت الشدة واليوم العصيب.

٢ - **المراقبة:** وهي أن يراقب نفسه بمدى التزامها وتمسكها بالشروط التي اشترطها عليه المولى تبارك وتعالى، وبمدى عمله بها، فقد جاء في المراقبة قوله تعالى: ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ (العلق: ١٤)، كما

جاء في الحديث الشريف قوله عليه والصلاة والسلام: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٣ - **المحاسبة:** وهي أن يجعل الإنسان لنفسه مسبارا يحسب ويختبر به سائر أعماله، ومحرارا يعرف به مؤشر الخير والشر في قلبه ونفسه وعقله ووجدانه وسلوكه وعمله، وفي الخبر الثابت أنه ﷺ جاءه رجل فقال: يارسول الله أوصني، فقال: (أمستوص أنت؟) فقال: نعم، قال: (إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه). وجاء في الأثر أن المؤمن قوّام على نفسه، يحاسبها لله.

٤ - **المرابطة:** وهي أن يعد المؤمن نفسه في موقع جهاد دائم، وكأنه مرابط في سبيل الله، يحرس موقعا للمسلمين، فيحسن حراستها والمرابطة فيه. فيتعامل مع نفسه وكأنها في رباط دائم حتى تلقى ربها وهو راض عنها، فقد جاء في الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يضرب نفسه كل ليلة بالدرة ويقول لها: ماذا عملت اليوم.

٥ - **المجاهدة:** وهو أن يستمر في مجاهدة نفسه للتوغل في الطاعات والاستكاف عن اقتراف الصغائر فضلا عن الوقوع خطئا في بعض الكبائر كالغيبة والنميمة والبهتان.. وقد حفلت مصادر التاريخ الإسلامي بأعاجيب السير عن مجاهدة السلف الصالح لأنفسهم للمواظبة على الطاعات صغيرها وكبيرها، واجتناب المعاصي مهما ضؤلت. وروى أبو حامد الغزالي في الإحياء - ج ٦، ص ٢٣، ٢٤ - عن الحسن البصري قوله: «قال: أدركت أقواما،

وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشـــيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطأونه بأرجلكـــم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي لـه ثـــوب، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم، إذا جنَّهم الليل فقيـام على أطرافهم، يفترشـــون وجوههم، تجري دموعهـــم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحســـنة فرحوا بها، ودأبوا في شكرها، وســـألوا الله أن يتقبلها، ووالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجو إلاّ بالمغفرة».

وتبقى الضوابط الشـــرعية - في نظرنا - هي الســـبيل لإصلاح الأنفس المعوجة، وتغييرها من الداخل نحو الأفضل، وتأسيســـها على الفضيلة، وهي عماد الإصلاح.

٢ - الضوابط الفقهية والقانونية

تقوم الضوابط الفقهية بدور المعدل والموجه لســـلوك الفرد المســـلم من الخارج، إذ تقدم لنا ضوابط شـــرعية عامة تحكم ســـائر تصرفات المجتمع المســـلم، وتضمن له الوحدة والانســـجام الاجتماعي الشـــكلي، كما تقوم به القوانـــين الوضعية فـــي المجتمعات العلمانية، بحيـــث تضمن وحدة المجتمع الشـــكلية في الســـلوك والتعامل الظاهري المشترك. وهي في نظرنا عوامل مكملة من الناحية الخارجية لضمان الســـير الحسن للفرد والمجتمع، ولكنها غير كافية لأنها تهتم بالإصلاح الشـــكلي الخارجي، ولا تؤســـس في العمق جذور النهضة والتقدم.

٣ - الضوابط المؤسسية: (مؤسسات المجتمع المدني أنموذجا) :

لمؤسسات الدولة دور حضاري بارز، وأساسي في عملية التغيير والإصلاح، يكمله عمل مؤسسات المجتمع المدني، ضمن منظومة من العلاقات القيمية والتطبيقية المتميزة بتكامل الدور الإصلاحي والتغييري بينهما، والحديث عنها مجال علمي واسع.

والخلاصة: أن الذات السوية معبر صناعة الآخر السوي، والمستقبل الزاهر، وهنا: ﴿**قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾ (سبأ :٤٩).

• • • • • • • •

الأزمة ليست في الدعوة..
ولكن في الدعاة أنفسهم (*)

أ. د/ محيى الدين عبدالحليم - مصر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٧٦ ص٢٥.

العمل الدعـوي بصورته الراهنة يعاني من الركـود والجمود والتحجر، ويعتمـد على منهج الإثارة والتهييج والانفعـال، والعزف على أوتار العاطفة وحدها بدلاً من مخاطبة العقل، ويقوِّم بعض الأفكار بأسـلوب غير منطقي، ويفتقر إلى الحجة والبرهان، وهو أسـلوب لا يستطيع أن يتعامل مع العقلية المعاصرة سواءً داخل ديار العرب والمسلمين أو خارجها، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى الخلل في التأهيل العلمي والتدريب العملي والاختيار الموضوعي لهؤلاء الذين يعتلون المنابر.

وتكمن المشكلة هنا في عدم توافر الداعية الذي يعرف كيف يقرأ ويسمع ويشـاهد ما يدور حوله بكفاءة وفاعلية، لا يخشـى بطش حاكم، أو تسـلط ظالم، ولا سـيما أن بعض زعماء العالم الإسـلامي قد درجوا على استغلال ضعاف النفوس من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وأحكموا سيطرتهم عليهم، مستخدمين في ذلك أساليب الترغيب والترهيب لتبرير استبدادهم وتسـلطهم، وانسـاق كثير من الدعاة وراء رغبات هؤلاء الحكام، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة طمعاً في العطايا الجزيلة والجوائز الثمينة، ولعل ما قاله «ابـن هانئ» في مدح أحد خلفاء الفاطمين يؤكد هذه الحقيقة حين أنشـد قائلاً:

ماشئت لا ماشاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

وفي قصيـدة أخرى يمعن في مدح هذا الخليفـة، وعصمته من الخطأ والزلل:

شهدت بفخرك السموات العلا

وتنزل القرآن فيك مديحاً

ولعل هذه الأزمة ترجع إلى أن مناهج التعليم الديني في كثير من البلاد الإسلامية التي هي في حاجة إلى مراجعة شاملة لأنها مناهج تقليدية تعتمد على أساليب عتيقة قد تضر أكثر ما تنفع، فبعض هذه المناهج تُشعل غلواء التطرف لدى الصبية والشباب بدل من أن تزرع فيهم روح التسامح والأخلاق النبيلة واحترام الآخر، كما أن بعضها يسهم في نشر ثقافة الفكر الخرافي ما يجعل التعليم الديني عاجزاً عن التواؤم مع المجتمع المعاصر حتى أصبحت مخرجات مؤسسات هذا النوع من التعليم لا تقدم للمجتمع إضافة تذكر لأنها أصبحت خاوية المضمون معرفياً، عدائية في توجهاتها ضد الآخر، تلقينية تعتمد على الحفظ والاستظهار بدلاً من التفسير والتحليل والإبداع، مما يشير إلى أن مناهج التعليم الديني في حاجة إلى إعادة نظر شاملة في معالجاته فلا تجنح إلى الحرية المنفلتة، ولا تتشبث بالأفكار الجامدة، ولا تخضع لضغوط أجنبية، ولا تتشبه بالمناهج العلمانية.

لقد انقضى الوقت الذي كان فيه الاتصال يعتمد على الأساليب الإنشائية والعبارات الطنانة، وأصبحت فنون الإقناع تقوم على تزويد الجماهير بالمعلومات الدقيقة والوقائع الملموسة والحقائق المؤكدة وتناول القضايا التي تهم الجماهير بلغة واضحة بعيدة عن الغرابة والغموض، مع الاهتمام بقوة البيان وتنوع الأساليب وجاذبية العرض ووحدة الموضوع، فإن التمعن في جوهر العقيدة الإسلامية يؤكد لنا أنها دعوة عقلية بكل معاني الكلمة لأن الإسلام دين يقوم على المنطق، ويستند إلى البرهان في مخاطبة الجماهير المسلمة وغير المسلمة.

وبلغ من تقدير الإسلام للعقل أن جعل معجزته - وهي القرآن الكريم - معجزة عقلية ترتبط بالعقل في كل زمان وكل مكان يعمل فيه، وما أكثر الآيات القرآنية التي تطلب من الإنسان أن يفكر ويتدبَّر ويطلق سراح عقله ليستنبط به، ويعتبر من خلال النظر إلى ما حوله من ظواهر طبيعية وحقائق علمية وما أكثر هذه الآيات.

والجدل العقلي تصعب ممارسته بمعزل عن حرية الفكر والاجتهاد، وبالتالي فإن أبرز ما يميز دعوة الإسلام هو ربطها بالعقل واحترامها له، بل اشترط الإسلام على من يتلقون عنه ويدينون به أن يبلغوه بعقولهم وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه بعد بحث وتمحيص، ومن لم يقتنع بعد ذلك فهو في حِلٍّ من قبول هذه الدعوة وعلى اللّه حسابه، كما أن الإسلام ليس في حاجة إليه، ذلك أن قيمة المرء في الإسلام ترتفع كلما ارتفعت اهتماماته العقلية بل إن من أهم الأهداف الإصلاحية لهذا الدين هو تحرير العقل البشري من ربقة التقليد والخرافات وتوجيهه نحو التفكير الحر، ولذلك حارب الإسلام الوثنية لأنها انحطاط بالعقل وعمى في البصيرة.

وحين طلب بعض المرتابين في رسالة محمد ﷺ المعجزات التي تثبت صحة هذه الرسالة كان رد اللّه عليهم أن ينظروا فيما احتوته آيات القرآن الكريم من دلائل عقلية وصور كونية تثبت صحة ما تضمنته هذه الرسالة وصدق حاملها.

وكانت دعوة محمد صلوات اللّه وسلامه عليه تقوم على الحجج المحكمة، وقد اعتمد في تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل، ويألفه الذوق، ويتلمسه الوجدان ولا يقف دون البدهية الفطرية ولا تنكره الحقيقة، وقد استعان في

ذلك بمختلف الطرق الفنية والمهارات الاتصالية التي حققت لبيانه سحرا، ولأقواله جذبا، فهذه قصة قرآنية، وهذه موعظة مباشرة، وذلك مثل حي، وهذا موضع يقتضي شدة أو لينا، وذلك يتطلب إيجازا أو إطنابا الخ....، مما يختلف باختلاف الظرف الذي يحكمه عامل الزمان والمكان، وأحوال الجمهور المتلقي، وهذا التنويع يجذب انتباه المتلقي، ويحدث الاستجابة العقلية، ويحقق ردود الفعل المنطقية، ويكفل صفة الاستمرار للفكرة ويجعل الداعية على صلة دائمة بالجماهير.

وهذا يعني أن هؤلاء الرجال في حاجة إلى التزود بالدراسات العلمية اللازمة لهم وإلى فهم طبيعة العلاقات الدولية والاقتصادات العالمية، إلى جانب التدريب على التقنيات الحديثة التي تمكِّنهم من متابعة ما يدور حولهم من أحداث واستكشافات علمية ومعطيات عصرية، أي أن حصر دورهم في التعريف بشعائر الإسلام ومناسك الحج والعمرة وأصول الوضوء والتيمم يضعف من تأثيرهم ويضيق الخناق عليهم، وهو ما يتنافى مع الدور المنوط بهم في التثقيف وقيادة الجماهير، ولذلك وجب أن تتزود هذه النوعية من الرجال بالزاد الفكري والخلقي الذي يليق بمكانتهم وينسجم مع رسالتهم، وأهم ما يلزمهم في هذا الصدد عفة اللسان وحسن الخلق والثقة بالنفس التي تكسب الداعية وضعاً شامخاً وتمكِّنه من توجيه الكلمات الواثقة، وتعطي صوته الطاقة الكافية في تكييف معلوماته وقضاياه مع ظروف السامعين واتجاهاتهم، كما أن الثقة بالنفس تمنح صاحبها قوة في القلب، وشجاعة في القول، ونفاذاً في البصيرة، فلا يخاف أحداً في الجهر بالصدق، ولا تأخذه في نصرة دين اللّه لومة لائم، ولا يكسل عن مناصرة الحق وتغيير المنكر، ولا يتقرب إلى الناس بأنواع المداهنة ويتودد إليهم بضروب الملق، ولا

يسكت عن المنكر لدواعي الهوى، ولا سيما في مقام الحجة على الخصم وأن يتجنب أسلوب السب والشتم والغلظة في القول.

والداعية المعتقد في صدق ما يقول تلتهب كلماته، وتستقر عباراته في القلوب لأنها قبس من نفسه المشتعلة، وصورة من عواطفه المنفعلة، وسرعان ما تتصل أرواح السامعين بروحه تستمد منها، وتتجدد بها، وتتجاوب معها وتندفع إلى الطريق الذي يريده لها فلا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفتها.

ومن ثم فإن التدقيق في اختيار العناصر القادرة على العمل في هذا الميدان يجب أن تأتي على رأس الأوليات التي تحفل بها الدول والمنظمات الإسلامية بدل من أن تعين عناصر غير مؤهلة للعمل في هذا الميدان الحيوي، لأن هؤلاء يعملون في مجال العقيدة فيجانبهم الصواب إذا لم يستطيعوا تفسير معنى الجهاد تفسيراً صحيحاً ومقبولاً، ولا يستطيعون التفريق بين الدفاع عن الأرض والعرض وعمليات القتل والإرهاب وسفك الدماء.

• • • • • • • •

الصحوة والدعوة والحاجة إلى فقه النقد والمناصحة

بقلم: عبدالعزيز انميرات - المغرب

تحتاج الأمة، من حين لآخر، وهي تسعى بكل ما تملك من إمكانات ومعطيات، إلى استعادة دورها في المسار الحضاري العام للإنسانية، حتى يكون بإمكانها القيام بمهمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتستحق، بذلك، صفة الخيرية والشهادة على الناس مصداقاً لقوله جل جلاله **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** (آل عمران: ١٠٤)، وقوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** (آل عمران: ١١٠) وقوله جل وعلا: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** (البقرة: ١٤٣).

أقول، تحتاج الأمة، من حين لآخر، إلى وقفات متأنية تكون فرصة حقيقية للمراجعة والتقويم والتصويب والبناء القويم لفهوم الناس لقيم التدين وسلوكياتهم، في اطار تجديد تدينهم الذي أصابه الخلل بفعل عوامل عدة، منها ما هو ذاتي، ومنها ما هو خارجي. فقد أصيب السلوك الإسلامي المعاصر بنوع من الخلط الكبير بين (المرجعية) و(المصدرية) في الانطلاق والاستدلال والتأسيس، وأنتج هذا الخلط الخطير آفات على مستوى تدين الكثير من المنتمين إلى الجغرافية الإسلامية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدعوة إلى تدعيم خط المراجعة والمناصحة في حياتنا كأمة، يفرض استرشادها في كل حين بالقرآن والسنة النبوية الصحيحة، رغبة في جعل فهوم الناس، قياديين وعاديين، ومهما اختلفت درجات ثقافتهم ومكاناتهم الاجتماعية وتفاوتت، فهي خاضعة للمرجعية الإسلامية العليا، وللنقد الذاتي القويم، الذي هو في آخر المطاف ضرورة لحماية قيم الدين

ومنطلقاته من التشويه والتحريف والاستغلال السيئ، حتى لا تختلط بفهوم النـاس وأهوائهم وميولاتهم، وما وصلـوا إليه من اجتهادات قد تصيب وقد تخطئ.

بهـذا نقول: إن تجديد الدعوة إلى النقـد والمراجعة، دعوة إلى تمثل المنهاج النبوي في صياغة حياة الإنسـان وسـلوكه وفق مقتضيات الشرع، لا وفق الأهواء، وبذلك نكون قد تمثلنا قوله ﷺ فيما رواه مسلم عن تميم الداري: «الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسـوله ولأئمة المسـلمين وعامتهـم»، قال ابن حجر في الفتح (هذا الحديث من الأحاديث التي قيل فيهـا إنها أحد أرباع الدين) [1]، كما نكون من جهة أخرى قد استرشـدنا بقوله ﷺ: «حق المسـلم على المسلم سـت»، فذكر منها «وإذا استنصحك فانصح له» [2]. وقوله ﷺ فيما رواه البخاري: «إذا اسـتنصح أحدكم أخاه فلينصح له» [3].

لقد جاء الإسـلام رسـالة ربانية هادية للإنسـان، يسترشد بها في بناء حياتـه كفرد وعنصر في الجماعة، ويصحح بها تصوره نحو الحياة والوجود والماهيـة ومقاصد الخلق، ويقوم بها، من حين لآخـر، منهاج صلته بخالقه، حتـى يحقق في نهاية المطاف أسـمى مقاصد الخلـق، مصداقاً لقوله جل جلاله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ «الذاريات: ٥٦».

فخطاب المناصحة والتقويم، سلوك إسلامي قويم له شواهده وأدلته، بل

---

(١) فتح الباري ١/١٣٨.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

أهميته في حياة الناس، به تحفظ للدين قدسيته وعصمته من جهة، وتدفع الأمة، من جهة أخرى، إلى الرجوع باستمرار إلى الأصول الشرعية للاحتكام إليها، وليس إلى الفهوم البشرية.

في كل عملية تصحيح تديِّنها، الذي يصيبه الخلل بفعل الابتعاد عن هذه الأصول، والخضوع للأهواء والعادات الشعبية. إننا في مرحلة إعادة تشكيل العقل المسلم، على المستويات الثلاثة: التفكير والتعبير والتدبير، ليكون المسلمون قادرين على الانتقال من الواقع المشهود، واقع التخلف والوهن والضعف، إلى الموقع المنشود، موقع الريادة والشهادة على الناس، شهادة تعكس التمثل الحقيقي لمتطلبات الاستخلاف والتكريم الإلهي للإنسان.

وبموازاة مع شعور التغيير والشهود الحضاري بضرورة امتلاك شوكة القيادة من جديد، والسعي إلى بناء الشاكلة الحضارية المطلوبة، تطرح مداخل عدة للتغيير والاصلاح وتجديد تديِّن هذه الأمة. لكن الناظر في خطاب كل توجه من التوجهات المشكِّلة لخطاب الاصلاح والتغيير، سيخرج بنتيجة مفادها اختلاف المناهج بحسب اختلاف التيارات. فبالرغم من اتفاق معظم هذه التيارات حول المنطلق، الذي هو العقيدة الإسلامية، وحول النتيجة، التي هي إصلاح حال الأمة، فإنها تختلف من حيث المناهج، سواء على المستوى التربوي أو العملي، وذلك تبعاً للخلفية المذهبية لكل تيار من جهة، ونوعية قراءته للمنطلق والمقاصد من جهة ثانية، الشيء الذي أدى إلى تعدد التيارات، إلى حد أن بعضها أصبح يقف عائقاً أمام مشروع التغيير المطلوب، لما يحمله من مواقف مسبقة تجاه الآخرين بصفة عامة، معتبراً نفسه الممثل الوحيد والأوحد للعمل الإسلامي الصحيح، ما كرس في نفوس

المنتمين إليه عقدة التميز ورسَّـخ في منهج تعاملهم أمراضاً زادت من تعميق الهـوة بين العاملين في حقل الدعوة إلى الله تعالى، غابت معها حقيقة هذه الأخيرة ومقاصدها الأساسية، فاستبدلت الدعوة إلى الإسلام بالدعوة إلى التنظيم، والدعوة إلى التشـبث بالمنهاج الرباني بالدعوة إلى التشبث بالمنهاج الـذي صاغته بعض الرموز، ما زاد من عمق الابتعاد عن الإسـلام، وتعميق الفهـم الخاطـئ للتدين. ولعل هذه النتيجة التي يعكسـها حال الأمة اليوم، هي ما يدفعنا إلى الجزم بكون الخلل في الفهم: فهم الشـرع من جهة وفهم الواقع من جهة ثانية، وما ترتب عن هذا من خلل على مستوى بناء وصياغة المناهـج المعتمدة في الاصلاح والتغيير، ما يجعلنا نؤكد كذلك أثر هذا النوع من الخلل في نوعية التصور الذي يصيغه التنظيم الحركي، حتى إنه انقلب، فـي معظمه، إلـى حواجز ومعوقات تمنع من تحقيـق هدفين متكاملين في عملية الاصلاح والتغيير:

١- الاتصال المباشـر بالنصوص الشـرعية، وما يلحق به من استفادة على مستوى بناء منهج الاصلاح والتغيير، وذلك لتضمن هذه النصوص جملة مـن القواعد والضوابط الأساسـية التي يحتاجها المسـلم بصفة عامة والداعي إلى الله، جل جلاله، بصفة خاصة.

٢- الاتصال المباشـر بواقع الأمة، حتى تكون الدعوة إلى التغيير والاصلاح مطابقة للواقع، إذ تحقيق هذا النوع من المطابقة يحتاج إلى نوع من الفقه والمنهج، يسـتطيع من خلالهما المشـتغل بالدعوة إلى الله تكوين الصورة الحقيقيـة للأمة، مع ما يسـتلزم ذلك مـن مراعاة الظـروف الزمانية والمكانية. لكن انفصال العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر والثقافة عن همِّ

الأمة وقضايا العصر، والاقتصار فقط على ترديد ما سبق به المتقدمون، حتى دون القدرة على الاستفادة منه، أو الاقتصار على ما قاله بعض المحسوبين على العمل الإسلامي، انقلبت معه الأمور إلى معوقات، في حين كان الأساس تحويلها إلى دوافع للنهوض والتقدم.

إن عدم امتلاك العاملين بداخل الحركة الإسلامية لهذا النوع من الإدراك الخاص بطبيعة التعامل مع النص والواقع معاً، هو الذي أدى إلى إنتاج المنهج المعوَّج، الذي تعكسه سلوكيات بعضهم، ما يجعل من السؤال الذي طالما طرحناه: هل يمكن فعلاً الحديث عن صحوة إسلامية راشدة تعكس طموح التغيير وتتمثل الأبجديات الأخلاقية للإسلام؟ سؤالاً مشروعاً ومطابقاً للمرحلة، ذلك أن إلقاء نظرة عميقة على حال هذه الصحوة ستمكننا من التأكيد على أن المرحلة الراهنة تقتضي من العاملين في داخل الحركات الإسلامية، إعادة النظر في مداخل التعامل مع هذه الصحوة حتى تكون صحوة خير وبركة، معبرة عن جيل القدوة والبناء. فلابد إذاً من تجديد آليات ترشيد مدِّ هذه الصحوة بوضع الأوعية الشرعية والبرامج الواقعية، حتى يكون الجميع على بصيرة من الأمر.

فحينما تفتقد الأمة القيادة الراشدة، التي تجمع بين فقه الشرع وفقه الواقع، تصاب بالخلل والانحراف عن الشرعة القويمة، ولعل حصول هذا النوع من الفقه والبصيرة هو ما سيمكننا من امتلاك آليات بناء القدرة الذاتية التي تحضنا على عودة الإسلام إلى حياة وسلوك الناس في المرحلة الراهنة، تسبقه المطالبة بصياغة مدخلات هذه العودة، ولعل من أبرزها وأهمها صياغة «فقه التدين» الصياغة المتكاملة التي تجمع بين الفهم والتنزيل. ولعل

هـــذا النوع من الفقه هو ما تفتقر إليـــه مجموعة من الحركات والتنظيمات المحســـوبة على العمل الإســـلامي، لأنه وحده الكفيل بتصحيح الرؤية ورسم المنهج التربوي الصحيح. لكن اســـتمرار مجموعة من المعوقات في حياة هذه الدعوة لا يفســـح المجال أمام الوصول إلى هذه المرحلة الأساســـية، وهو ما أثَّر ســـلباً على المنهج المتبع في الاصلاح والتغيير والتجديد، لعل من أبرزها: غياب المقاصد والحزبية والوساطة وغياب فقه الواقع.

• • • • • • • •

من مظاهر الخلل في الحركات الإسلامية المعاصرة (*)

الدكتور/ محمد عمارة - مصر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٣١٦ ص ٦٦.

كاتب هذه الصفحات، وان لم يكن في يوم من الأيام قد انتسب إلى عضوية تنظيم من تنظيمات الحركات الإسلامية.. إلا أنه ليس غريبا أن يكتب في هذا الموضوع.. موضوع: «الحركات الإسلامية: نظرة مستقبلية».. وعلى الأقل من خلال الزاوية والجزئية التي اختار أن يفرد لها هذه الصفحات.

فبحكم التكوين الفكري، الموروث، الذي اتخذه سبيلا للتعلم وللعلم: الدراسة في الأزهر ودار العلوم.. وبحكم التخصص الأكاديمي في العلوم الإسلامية والتفرغ لقضايا الفكر الإسلامي.. كان الاهتمام بالحركات الإسلامية شاغلا أصيلا من شواغل كاتب هذه الصفحات- حتى في حقبة من تاريخه السياسي والفكري كان فيها رافضا لطريق هذه الحركات - فبحكم العلائق.. وبحكم هذا الرفض أيضا.. كانت هذه الحركات في بؤرة الاهتمامات..

ولقد زادت هذه الاهتمامات، فبلغت مستوى المتابعة للكثير من أدبيات الحركات الإسلامية، ومواقفها، وأنشطتها، وللمد والجزر الذين تناوبا على العديد من فصائلها.. زادت هذه الاهتمامات في الربع قرن الأخير.. وذلك منذ أن استخلص كاتب هذه الصفحات عقله ووجدانه واسهاماته الفكرية لقضية البعث الإسلامي، جنديا من جنود الفكر الذين يجتهدون لتجديد دنيا المسلمين بتجديد الفكر الإسلامي..

ولقد تجسدت حصيلة هذه الزيادة من الاهتمام بفكر وأنشطة الحركات الإسلامية المعاصرة في عديد من الكتب والفصول والدراسات التي قدمها كاتب هذه الصفحات إلى المكتبة الإسلامية.

فبعد دراسة الأصول التاريخية والجذور التراثية في كتاب (تيارات

الفكر الإسلامي) كانت الدراسة لـ (تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة).. ثم جاءت الدراسات التي أنجزتها عن الشيخ حسن البنا (١٣٢٤-١٣٦٨هـ ١٩٠٦ -١٩٤٩م) وجماعة الإخوان المسلمين.. وعن أبي الأعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ-١٩٠٣- ١٩٧٩م) والجماعة الإسلامية وعن السيد قطب (١٣٤٢-١٣٨٦هـ- ١٩٠٦-١٩٦٦م) وتيار الرفض والغضب الإسلامي.. وعن جماعة الجهاد والفريضة الغائبة..

وبعد انجاز هذه الأعمال الفكرية، زادت اهتمامات كاتب هذه الصفحات بأدبيات فصائل تيار الرفض والغضب الإسلامي، فأخذ يجمع هذه الأدبيات، على أمل أن يفرد لفكر هذا التيار عملا يفي بدراسته دراسة موضوعية، إن شاء الله.

إذن.. فكاتب هذه الصفحات، وإن لم يكن عضوا في أي تنظيم من تنظيمات الحركات الإسلامية المعاصرة، إلا أنه يرجو أن تكون لديه مؤهلات الحديث في هذا الموضوع.

وإضافة إلى ما تقدم - وهي إضافة بالغة الأهمية في هذا المقام - فإن الاهتمام بفكر ونشاط الحركات الإسلامية المعاصرة، ليس لمجرد الدراسة التي تستهدف أن تصدر في كتاب أو عدد من الكتب والأبحاث.. وإنما هي اهتمامات مجاهد - سلاحه الفكر - بإخوة المعركة الواحدة، ورفاق الخندق النضالي الواحد، الذي نجاهد منه جميعا لبعث هذه الأمة وانتزاع استقلالها السليب.. وتحقيق نهضتها بالإسلام.. فهو ليس اهتمام «الأكاديمية - الحرفية»، وإنما هو اهتمام العضو الذي يمتلك، بالفكر، أعلى مستويات الحساسية، بسائر أعضاء الجسد... جسد الطلائع التي تقف

على أرض معسكر البعث الإسلامي الجديد.. فهذه الحركات الإسلامية المعاصرة، بالنسبة لي، ليست مجرد «مادة» للدراسة.. وإنما هي:

الأمل الإسلامي، المرشح والمؤهل لقيادة النهضة الإسلامية المنشودة لهذه الأمة، والتي نأمل أن تحقق لها الاستقلال الحقيقي.. والتقدم الحقيقي.. والقوة العادلة.. لتعود هذه الأمة، ثانية، إلى صدارة الدنيا وإمامة العالم، تسهم إسهامها الطبيعي والمتميز في ترشيد مسيرة البشرية جمعاء..

وهي المالكة الوحيدة «للشوكة الفكرية»، أي للفكر القادر وحده، ودون سواه على تحريك جماهير الأمة، وحشدها لتنتمي إلى الذات، ولتدفع العدوان عن هذه الذات، ولتحقق المشروع الحضاري الذي تتحقق به وتزدهر هذه الذات، ذات الأمة الإسلامية.. إنها المالكة لهذه «الشوكة الفكرية» لوقوفها، إجمالا، على أرض الهوية الحضارية الإسلامية.. ومن ثم فإنها المالكة لزمام حركة وتحريك الجماهير الإسلامية، مادة وأداة التغيير.. وصاحبة المصلحة الأولى في التغيير الاسلامي المنشود.. ولذلك كان وسيظل الانعطاف الجماهيري الكبير وتعاطفها المتنامي نحو هذه الحركات.

وهذه الحركات الإسلامية هي الناهضة بالفريضة الإسلامية الكفائية، والمحققة للواجب الشرعي الاجتماعي.. فريضة وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على تبعات ومشاق طريق الحق.. أي أنها الطلائع الإسلامية، التي تنهض بهذه الفريضة، نيابة عن العامة والجمهور، مستعينة بهؤلاء العامة وهذا الجمهور..

وهذه الحركات الإسلامية هي الوعاء التنظيمي الذي يستوعب الطاقات الإسلامية النشطة والفاعلة، فيوظفها في المكان المناسب والنافع، منقذا

لهـا من التردي في أوعية تيارات العلمانية والتغرب والاستلاب الحضاري والمروق والالحاد والانحلال واللا مبالاة.. انها العاصم لشباب الأمة- مادة المستقبل وعدته - من التواكلية والانحلال، ومن السقوط في المستنقعات التي تمد التنظيمات العلمانية بالمدد الجديد والدم الجديد..

إنهـا نحن.. ونحن منها.. وبها.. ومعها.. نقف معا وجميعا في ذات الساحة، وبذات المعسكر، ونجاهد متكاتفين من ذات الخندق.. حتى وان اختلفنا وخالفنا بعض فصائل هذه الحركات الإسلامية المعاصرة في بعض من الرؤى وعدد من السبل والبدائل والتصورات.

هذا عن علاقة كاتب هذه الصفحات بالحركات الاسلامية المعاصرة.. وعن مكانه منها، ومكانتها لديه..

ولذلك.. فإن النقد الذي تجتهد هذه الصفحات لتتلمس بعضا من جوانبه، هو جزء من أداء كاتب هذه الصفحات لفريضة النصح والتناصح الإسلامية.. تلك الفريضة الكفائية، والواجب الشرعي الاجتماعي، الذي افترضه الله علينا تجاه هذه الحركات.. وهي تتعين على أهل الاختصاص والإمكانات، استهدافا لتقويم المسيرة، وترشيد السعي، ضمانا لبلوغ الأهداف.. ف «الدين النصيحة، لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» رواه البخاري ومسلم.. وهذه الحركات الإسلامية المعاصرة هي في موقع «الإمامة» السياسية والاجتماعية والفكرية - شعبيا وجماهيريا - بالنسبة لأمة الإسلام وعامة المسلمين..

ولأن هذا هو حال كاتب هذه الانتقادات لبعض من فصائل الحركات الإسلامية المعاصرة، كان معيار هذا النقد، الذي يحتكم إلى مقاييسه

وضوابطه، هو معيار المنهج الإسلامي، وبخاصة النظرة الإسلامية: الوسطية الإسلامية الجامعة التي هي: عدل بين ظلمين، وحق بين باطلين، واعتدال بين تطرفين، وتوازن وموازنة ينفيان الخلل والاختلال، ويضمنان النظرة الشاملة التي تبرأ من انحياز وتطرف وانغلاق النظرة الوحيدة الجانب، التي لا ترى في الظاهرة إلا أحد قطبيها، والتي تعجز عن الجمع والتأليف بين عناصر الحق ومكوناته دونما ميل أو هوى أو انحراف.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة:١٤٣).

وصدق رسوله الكريم ﷺ، إذ يقول: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» رواه الإمام أحمد..

فمواطن «الخلل» التي تتلمسها وتنتقدها هذه السطور، هي المواطن التي غابت فيها عن الحركات الإسلامية المعاصرة موازين الوسطية الإسلامية الجامعة، سواء أكان ذلك في «الفكر» أو «الممارسة» لدى هذه الحركات..

أما مواطن «الخلل» هذه.. فإننا نتخير منها نماذج، وهي - على سبيل المثال:

١-الخلل في فهم «التعددية».. وفي الإيمان بجدواها:

إن الكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة.. ولا نبالغ اذا قلنا أكثريتها.. إنما تقف من مبدأ «التعددية» سواء في الرؤي الفكرية أو الأوعية التنظيمية والتنظيمات الحركية، موقف الرفض العدائي، أو الريبة الشديدة، أو الشك

في شرعيتها، أو في ضرورتها وجدواها..

وهـذا الرفض لهذه «التعددية» ليس نابعا من مجرد الرغبة في الانفراد بالفعل وبالقرار وبالجماهير في السـاحة الاسـلامية - وهي رغبة مفهومة ومقبولـة - وإنما هـو رفض نابع من خلل جعل هـذه الحركات لا تميز بين الأصول والمبادئ والقواعد الإسـلامية التي لا يجوز فيها الاختلاف، والتي هي، لخطرها وكليتها وثباتها، الضامنة لوحدة الأمة، في العقيدة والشـريعة والروح الحضارية..

الخلـل في التمييز بين هذه الأصول الجامعـة، وبين الفروع والجزئيات والسـبل والوسـائل المتعلقة بالمتغيـرات - والمتغيرات الدنيويـة على وجه الخصـوص - وهي التـي لا تضر فيهـا تعددية الرؤى والمناهـج، وتعددية الدعوات والتنظيمات.. بل ربما تكون هذه التعددية في هذا النطاق، مصدرا للثراء الفكـري، ودافعا على تحريك العقل نحو الاجتهـاد والابداع، ومنبها على الأخطـاء والانحرافات، ومرايا يرى فيهـا الجميع العيوب والأمراض، فيسرعون إلى علاجها والخلاص من مضاعفاتها.

لقد سن لنا تاريخ الفكر الإسلامي، منذ عصر الصدر الأول، سنة حسنة، اهتدى فيها بمنهج الوسـطية الإسلامية الجامعة، وذلك عندما علمنا أنه لا اجتهـاد في الأصـول والمبادئ والقواعد التي بني عليها الإسـلام، اللهم الا الاجتهـاد في الفهم والتقعيد وإلحاق الفروع بالأصول.. فهذه هي مسـاحة وإطـار وحدة الأمـة، التي يمتنع فيها الاختلاف، ومن ثـم تمتنع التعددية.. أمـا في الفروع التي تقام ابنيتها على هـذه القواعد، فهنا يصح، بل ويجب الاجتهاد.. وإذا كانت هذه السـنة الإسـلامية الحسنة قد علمتنا ان اجتهاد

المجتهد غير ملزم للمجتهد الآخر، وأن لكل مجتهد مقلدون يسترشدون باجتهاداته.. فإن هذه السنة الاسلامية هي بعينها الاعلان الاسلامي عن شرعية ومشروعية التعددية الاسلامية في هذه المساحات من الفكر وتطبيقاته، وفي الأدوات اللازمة لذلك، ومنها التنظيمات..

تلك هي سنة الاسلام التي شرعت وقننت لمبدأ التعددية في الفكر الاسلامي وفي الممارسات الاسلامية منذ صدر الاسلام، والتي بناء عليها، وتطبيقا لنهجها كانت تيارات الاجتهاد الاسلامي مصدرا لثراء الفكر الاسلامي على عهد الازدهار الحضاري، الذي سبق عصر التراجع والجمود.

وغيبة هذه السنة الاسلامية الحسنة، والمتميزة، عن وعي أغلب الحركات الإسلامية المعاصرة، هي في تقديري، المصدر الأول في هذا «الخلل» الذي جعلها ويجعلها تتخذ من التعددية ذلك الموقف المتراوح ما بين التحريم والعداء والرفض والارتياب والنفور!

واذا كانت الرؤية الصحيحة والواعية نسبيا - لهذه القضية، قد عصمت بعضا من الحركات الاسلامية المعاصرة من هذا العداء للتعددية - كما هو الحال في السودان وتونس مثلا.. فإن للاخوان المسلمين، بمصر، تجربة في «التعايش» مع «الجمعية الشرعية»، وهي ان لم تنبع من الايمان بالتعددية، على النحو الذي نتحدث عنه، إلا أنها تستحق الدراسة، كنموذج لأفق يرى اتساع العمل الاسلامي لتعددية في الحركات، التي تركز كل منها على ميدان لا يكون موطن التركيز لدى الأخرى.. إنها نموذج وايجابية، لكنها تظل جزئية، كما تظل الاستثناء الذي يؤكد سيادة قاعدة «الخلل» الذي أصاب ويصيب موقف الحركات الإسلامية المعاصرة في هذا المقام.. مقام «التعددية» في

الرؤى وفي التنظيم وحظه من «الإسلامية»، ومن «الضرورة» في واقع العصر الذي نعيش فيه..

٢- الخلل في علاقة «الذات» بـ «الآخر»:

لو أن «الواقع» في ديار الإسلام قد ظل «إسلاميا خالصا» يسود فيه منهج النبوة، على النحو الذي حدث في الصدر الأول للإسلام، لما دعت الدواعي إلى قيام «الحركات الإسلامية».. لكن هذا التمني هو مما تأباه سنن الله في تطور المجتمعات، كل المجتمعات..

وفي حال «الواقع» الاسلامي، فإن الفتوحات الجديدة قد أدخلت إلى الأمة والدولة والفكر «آخر» شاب نقاء المنبع الاسلامي بشوائب منها ماكان نافعا ومنها ما كان ضارا فأصاب التصورات الإسلامية والواقع الإسلامي بتشوهات أو غبش تفاوتت آثاره في الخطر والتأثير.. ولقد تزامل مع هذا الوافد، الذي أتت به الفتوحات ومواريث أمم البلاد المفتوحة، ثمرات القرون التي تتوالى، والتي تأتي في صورة بدع ومستحدثات تطرأ على العقائد والشرائع، إن بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف والتشويه..

فلما جاء الحين الذي تراكمت فيه هذه الآثار - وغيرها - فدخلت بعصر الازدهار للحضارة الاسلامية منعطف التراجع والجمود والفقر في الابداع، تصادف ان كانت السيادة على «الدولة» في ذلك المنعطف للعسكر الترك المماليك، فساد في حضارتنا، لعدة قرون ما تواجهه الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة من تحدي: «التخلف الموروث»!.

ثم حدث أن عاجلت الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة بواكير يقظة

الاجتهاد الاسلامي التي نهضت لتخليص الأمة من هذا «التخلف الموروث».. فأجهضتها، ثم أضافت الى شـوائب «التخلف الموروث» شوائب «التغريب»، التي رعتها سلطات الاحتلال ومؤسسـاته الفكرية والتعليمية والإعلامية.. فأضيـف إلى تحـدي «التخلف المـوروث» تحدى «الاسـتلاب الحضاري» الذي يمسخ وينسخ ويشـوه الهوية الاسلامية لفكر الأمة ولواقعها.. فكانت «البلوى» التي اسـتنفرت حدتها، عندما أوشـكت على العموم، ضمير الأمة وعقلهـا ووجدانها، فردت عليها ذلك الرد الايجابي الذي تمثل في الحركات الاسـلامية التي عرفتها ديار الإسلامي منذ جمال الدين الأفغاني و(العروة الوثقى) وحتى الحركات التي نعنيها بالحديث في هذه الصفحات..

إذن.. فالحركات الاسـلامية المعاصرة لا تنفرد وحدها بالعيش والحركة في واقع ديار الإسـلام.. وإنما معها «آخر» يزاحمها في الفكر والواقع الذي تعيـش فيـه.. وهنا نلمح خللا فـي علاقة هذه الحركات الاسـلامية بهذا «الآخر».

وعلى سبيل المثال... فإن هيمنة النموذج الحضاري الغربي على مؤسسات الفكـر والتعليم والإعلام في بلاد الإسـلام، قد صنع مـن أبناء هذه الأمة تيارا متغربا، يتبنى مذاهب الغـرب الوضعية، ويدعو إلى علمانيتها.. وهذا «الآخر - العلماني» ليس كل من فيه «عميلا» يسعى إلى إلحاق ديار الإسلام بالمركز الغربي، ويعادي نهضة الأمة وقوتها واستقلالها.. فإلى جانب قلة من «العملاء».. وإلى جانب قلة من «العلمانين الثوريين»، الذين تطمح علمانيتهم إلى نقض الدين والتدين، وليس فقط إلى فصل الدين عن الدولة، والخلاف مع هؤلاء هو خلاف في «الأصول» وليس خلافا في «الفروع»، إلى جانب هذه

القلة من «العملاء» ومن الزنادقة وأعداء الدين والتدين، هناك - في صفوف «الآخر - العلماني» - كثرة سلكت سبيل التغرب والعلمانية لأسباب كثيرة، منها طبيعة النشأة والتكوين الفكري.. ومنها رجحان كفة «الخيار الغربي» عندما قارنوه بصورة «الخيار الإسلامي» على النحو الذي كان سائدا في عصر التراجع والجمود - ولقد حسبوه هو الإسلام، وظنوا أنه «الخيار الإسلامي» الوحيد.. ومنها ذلك «الاجتهاد الخاطئ» الذي اعتقد أصحابه أن استعارة «النموذج الغربي» هي السلاح لمواجهة الغرب، ولاستخلاص الوطن والأمة من استعماره.

وهذا القطاع من العلمانيين المسلمين هو الذي نقول إن علاقة الحركات الاسلامية المعاصرة به يسودها «خلل» كبير وأكيد.

إن الأغلبية الساحقة من الحركات الاسلامية قد اسقطت هذا القطاع من العلمانيين من حساب «الإمكانات» التي عليها أن تتعامل معها وأن تجتذبها إلى صفوفها.. أو على الأقل الانتقال بهم من صفوف «الأعداء» إلى صفوف «الأصدقاء- للمتفهمين» أو «المحايدين»!.

لقد وقفت أغلب الحركات الاسلامية من هؤلاء العلمانيين - القابضين على أغلب وسائل التأثير والتوجيه في الواقع الإسلامي - موقف الجهل بدوافعهم إلى العلمانية، والتجاهل للإضافات الهامة التي يمكن أن يضيفوها إلى المشروع الإسلامي إن هم فهموا حقيقته.. فكان الانصراف عن الجهد المطلوب لاكتشاف نقاط الاتفاق، وتنميتها، محاصرة وتقليصا لنقاط الخلاف مع هذا «الآخر - العلماني».

كذلك، يسود هذا «الخلل» في علاقة «الذات - الفكرية» لدى الحركات الاسلامية بـ «الذات - الفكرية» للآخرين فعلاقة الأغلبية الساحقة من الحركات الإسلامية بنظريات الآخرين ومناهجهم في البحث والتفكير، يسودها خلل الجهل أو التجاهل، أو هما معا!.. الأمر الذي يقف بهذه الحركات عند إطار وحدود «النقيض» و«رد الفعل» للحركات العلمانية ونظرياتها ومناهجها، على نحو يتسم بالعموم والإطلاق.. تجهل ما يعلمون، وتعلم ما يجهلون، الأمر الذي يكرس ويؤبد هذا الانقسام الذي فرض على عقل الأمة وطاقاتها، والذي يجعل بأسها شديداً بين أبنائها، كما يهدد طاقاتها بالتبدد عندما يقف الفريقان عند وضع «شد الحبل» هذا، دون غالب أو مغلوب؟!..

والأمر الذي لاشك فيه هو وجوب خروج الحركات الإسلامية من وضع «رد الفعل» للحركات العلمانية، إلى وضع «البديل»، الذي لا يقنع بالجهل والتجاهل لما لدى «الآخر»، وإنما يسعى جاهداً لامتلاك «الوعي» بما لدى الآخر، سواء منه ما يدخل في إطار «النافع» الذي يستلهم، أو «الضار» الذي يعين الإدراك له على فعالية التحصن من الوقوع في حبائله، وعلى جدوى النقد له، لننقذ من آثاره الآخرين!..

كذلك تشهد علاقة الحركات الاسلامية بـ «الآخر»، الخارج عن عضوية تنظيماتها خللا متفاوت الدرجات لدى هذه الحركات.. فمنها المغالي الذي يرى في جماعته كل جماعة المسلمين!!.

ومنها المعتدل الذي يرى جماعته جماعة من المسلمين، لكنه ينظر بالتجاهل أو التعالي أو الإهمال إلى كل من هو خارج دائرة «التنظيم»!.

٣- الخلل في العلاقة بين «المحلية» وبين «العالمية» الإسلامية:

إن الكثير من «تصورات الفكر» لدى الكثير من الحركات الاسلامية المعاصرة قد خلطت بين وحدة الإسلام الديني، كوضع إلهي في العقيدة والشريعة، لم ولن يعرف التعددية في الأصول والقواعد والمبادئ والأركان.. خلطت بين هذا الاسلام الواحد، وبين «تصورات الفكر الإسلامي» التي من الممكن، بل ومن الواجب والطبيعي أن تتعدد لتعدد المكونات والمنطلقات التي تسهم - من الإسلام الواحد - في صياغتها وتحديد معالمها..

فإلى جانب وحدة الإسلام، التي تثمر وحدة الفكر الإسلامي في العقيدة وفي الشريعة.. هناك «الفكر الإسلامي» الذي يدخل «الواقع الاسلامي» عاملا من عوامل إفرازه وتحديد معالمه، وهو الفكر الذي تتميز تصوراته بتميز الواقع في ديار الإسلام، عبر الزمان والمكان.

لكن الخلل الذي أصاب ويصيب تصورات كثير من الحركات الإسلامية للعلاقة بين هذين المستويين من مستويات النسق الفكري الإسلامي، قد جعلت وتجعل الكثير من هذه الحركات، في «الفكر»، تنحو نحو «تجريد نظري» يتصور - تبعا لوحدة دين الإسلام - عالم الاسلام وواقع دياره نسقا واحدا متسقا لا يعرف الفوارق في مستويات التطور ولا الاختلاف في الأعراف والعادات والمذاهب والتصورات.

أما في «الممارسة والتطبيق»، فإن هذه الحركات تستغرق - إلى حد الغرق - في «المحلية»، التي تجعلها منكفئة على واقعها المحلي دون سواه، حتى لا تقف بأغلب اهتماماتها عند خصوصيات الإقليم الضيق الذي تعيش

فيه، فتعيد إلى عالمنا المتشابك صورة «القبائل» التي لا ترى أبعد من عالم مضارب الخيام التي تعيش فيها؟!

وإذا كانت الحركات الاسلامية - وهي كذلك: «طلائع أمة»، وليست «طلائع طبقة»، وإذا كانت هذه الأمة تعيش في وطن يمتد من «غانه» إلى «فرغانه»، مشتملا على تمايزات في الواقع والمواريث ومستويات التطور والمصالح والاهتمامات والطموحات والمشكلات والأعراف والعادات وطرائق العيش وأسبابه، بل والمناخات.. الخ.. فمن الطبيعي أن تكون هناك أهمية لعلاقة تبرأ من الخلل، وتقيم التوازن بين ما هو «واحد» وما هو «متعدد» في النسق الفكري للإسلام والمسلمين.. وبذلك تتزامل «المحلية» و«العالمية - المللية - الإسلامية». دونما خلل أو إهمال لأي منهما لحساب الآخر أو على حسابه، كما هو حادث الآن عند الكثير من هذه الحركات.

٤- الخلل في علاقة «التاريخ» بـ «العصر»..

وفي علاقة «الأموات» بـ «الأحياء».. وفي علاقة «الموروث» بـ «الإبداع»:

كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة، تسيطر على نظرتها إلى التطور التاريخي فكرة «التراجع التاريخي»، ونظرة التدني والهبوط لخط بيان التطور والتقدم عبر هذا التاريخ..

وبعض الباحثين يقف في تعليل هذه النظرة الخاطئة إلى خط سير التقدم عبر التاريخ، لدى هذه الحركات، عند التفسير الذي تقدمه هذه الحركات للحديث النبوي الشريف الذي قال فيه الرسول، ﷺ: «خير أمتي القرن - (أي الجيل) - الذي أنا فيه» - رواه مسلم وأبو داوود والإمام أحمد..

ورغـم صدق هذا التعليل، إلا أن هذا السـبب ليـس الوحيد في تكوين نظرة هذه الحركات التي تؤمن بتراجع التقدم والخيرية عبر التاريخ وبمرور قرونه.

فمع خطأ هذه الحركات في تفسـير معنى هذا الحديث الشريف، تقف وتتزامل أسباب أخرى، منها المقارنة التي تجريها هذه الحركات بين حال الأمة اليـوم وبين حالها في عصر صدر الإسـلام، وهي مقارنة توهم بصدق هذه النظرة التي تؤمن بتراجع الخيرية والتقدم بمرور الزمن وتقادم التاريخ.

وفـي اعتقادي أن مراجعة هذه النظرة، بكشـف الأخطـاء القائمة في أسـبابها ومنطلقاتها، هـو الكفيل بتصحيح الخلل السـائد في فكر الكثير من الحركات الاسـلامية، التـي تعيش في الماضـي دون الحاضر، أو أكثر منه.. والتي تسـتفتي «الأموات» في كل شـؤون «الإحياء» مهملة التمييز في القضايـا الفكرية بين «الثوابت» وبين «المتغيـرات»، والتي تقدس «الموروث» على النحو الذي يقلل، إلى حد الازدراء، من شأن «الابداع»! بل والذي يخلط بـين «البدعة في الدين» وبين الابداع فـي الحضارة، فيرفضهما معا!!.. إن هذه المراجعة ضرورية لتصحيح هذا الخلل الملحوظ والسائد لدى قطاعات كبيرة في كثير من هذه الحركات.

فبالنسـبة لتدني المستوى الحضاري للأمة الإسـلامية اليوم عن نظيره في عصـر أزدهارها الحضاري، وهو أمر غير منكـور - فإنه تدني قد نبع وارتبط بتخلف شـروط النهضة والازدهـار الحضاري، أي أنه عارض يزول بزوال أسباب التخلف، وليس «قدرا تاريخيا» ولا «حتمية» من حتميات توالي القرون.

أما عن الحديث النبوي الذي يقطع بأن خير أجيال الأمة هو جيل الرسول، عليه الصلاة والسلام فهذه الحقيقة، التي تحدث عنها هذا الحديث، تحتاج إلى عرض وإلى تفسير، قد يفضيان بنا الى فهم آخر غير الذي فهمته منه هذه الحركات المؤمنة بتراجع الخيرية والتقدم بمرور التاريخ..

وفي اعتقادي أن هذا الحديث النبوي لا يستأثر بالخيرية «المطلقة» لجيل الرسول، عليه الصلاة والسلام.. وإنما هو يتحدث عن خيرية «التأسيس لقواعد النموذج الإسلامي» وهي خيرية الثوابت والقواعد، لا تنفي خيرية الفروع والأبنية التي يقيمها الخلف على هذه القواعد والأسس، مع بقاء خيرية الأسس متميزة، باعتبارها هي التي تمنح الفروع والمستجدات الروح والصبغة التي ميزت الأسس، فكأنما خيرية الجديد - وهي غير منفية - مستمدة من خيرية الأساس!..

ويشهد لهذا التفسير الذي نقدمه لهذا الحديث النبوي، ما نراه من شهادات أخرى تزكيه وتدعمه، عندما تقول إن النظرة «التقدمية» لخط سير التقدم عبر التاريخ - وليست النظرة «التراجعية» - هي المعبرة عن حقيقة موقف الإسلام في هذا المقام.

فنظرة الإسلام الى خط سير التطور الانساني، منذ آدم الى محمد - وعبر رسالات الرسل ونبوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام، تؤكد النظرة المتقدمة والمتصاعدة لخط سير الخيرية والتقدم عبر التاريخ.. فالإنسانية قد بلغت برسالة محمد ﷺ، سن الرشد، بعد أن كانت خرافا ضالة في فترات سبقت ذلك التاريخ.. وموقف الإسلام المتميز من أدلة «العقل» و«الكون» شاهد على هذا الارتقاء الانساني بمرور التاريخ.. بل إن ختم

الرسالات السماوية برسالة المصطفى ﷺ والاعتماد في التجديد الديني وتطوير القانون الإسلامي على الاجتهاد الإنساني هو أصدق الأدلة على أن هذه النظرة هي النظرة الإسلامية الحقة في هذا الموضوع.. ثم .. إن الأبنية الحضارية التي تزهو بها أمة الإسلام، وإن قامت على الأسس التي شهدها عصر البعثة، إلا أنه قد جاءت تالية لجيل الرسول عليه الصلاة والسلام... فعلوم الدين والدنيا، التي مثلت جماع إبداع الإنسان المسلم، متأثرا بالوحي ومسترشداً بمنهج النبوة، قد تبلورت جميعها بعد عصر صدر الإسلام.. وكذلك الحال مع الفتوحات الإسلامية التي نهض بها المسلمون.. ومع تحقيق وتجسيد عالمية الإسلام ودعوته بنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.. كل ذلك خير وخيرية ارتبطا بتقدم وبتوالي قرون التاريخ..

وأيضا.. أليس رسول الله ﷺ، هو القائل - أيضا- في معرض الحديث عن تلقي فكره النبوي: «رب مبلغ أوعي من سامع»؟ رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والدارمي والأمام احمد.. وهو حديث لا يحصر الخيرية في الصحابة والشهود..

وأخيرا.. فمن من الحركات الإسلامية ينكر أن حال الصحوة الإسلامية اليوم خير منه في عقد الخمسينات من القرن العشرين؟.. وأن وضعها منذ ثلاثينيات هذا القرن هو خير منه يوم عموم بلوى الاحتواء الاستعماري وسيادة العلمانية والتغريب حتى لدى الأحزاب التي تقدمت لمقاومة الاستعمار، في الحقبة التي شهدت زوال رمز الخلافة سنة ١٩٢٤م؟!

إذن.. فالخيرية التي تحدث عنها الحديث النبوي هي خيرية الجيل المؤسس.. خيرية القواعد والأسس والسوابق الدستورية، وفضلها لا ينكر

حتـــى على الجديد الذي يرفعـــه الخلف فوق ما صنع الجيل المؤســـس من قواعـــد وأركان.. كما أن خيرية الجديد، بل وتعاظمها، لا تناقض بينها وبين خيرية الأساس والمؤسسين.. وإلا فمن الذي ينكر علو مقام الخير فيما أنجز عمر بن عبدالعزيز من العدل الاجتماعي - وهو قد أنجزه بعد أن ساد الظلم والجور وعمت الأثرة - علو مقام الخير في هذا الانجاز على نظيره في عهد الراشـــد الثاني العادل عمر بن الخطاب، والذي كان عدله اســـتمراراً لعدل النبي والصديق، وفي مناخ موات، يعين عليه الصحابة الأبرار؟!

إن التعارض غير قائم.. وكل خير يقدر بقدره، بصرف النظر عن الظرف التاريخـــي الذي أنجز فيه.. ومن ثم فإن جهدا فكريا يجب أن يبذل من قبل الكثير من الحركات الاســـلامية المعاصرة لتصحيح هذا الخلل الســـائد في نظرتها إلى علاقة خط بيان التقدم بمرور الزمن وتوالى قرون التاريخ، وهو الخلـــل الذي جعلها ويجعلها تعيش في «الماضـــي» مديرة ظهرها في أحيان كثيـــرة، «للعصر» وتحكم «الأمـــوات» في «الأحياء»، وتميل بالكفة لحســـاب «الموروث» على حساب «الإبداع»!

٥- الخلل في علاقة «الحركة» بـ «الفكر»:

الحركت الإسلامية المعاصرة هي، في جملتها إنما تمثل فصائل الصورة المعاصرة لحركة وتيار ودعوة الإحياء واليقظة والتجديد، التي عرفها الشرق الإسلامي منذ دعوة الأمام محمد بن عبدالوهاب «١١١٥ -١٢٠٦هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م» والتي خطت خطوات نوعية في الوعي والتأثير وللعموم والعقلانية منذ تيار «الجامعة الإسلامية» الذي قاده الرائد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ -١٣١٤ هـــ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م).. ولذلك فقلد تراوحت وتفاوتت مواقف هذه

الحركات من «الفكر- المجدد» و«العقلانية - المجتهدة» فمال بعضها إلى خصوصية الوهابية، وزادت لدى بعضها جرعة العقلانية على نحو مما كان عليه الأمر في تيار جمال الدين.. ولقد لعبت البيئة حضرا أو بادية، والموروث المذهبي ونهضت طبيعة التحديات بعملها في تحديد موقع الحركة من «النصوصية» ومن «العقلانية» إلى حد كبير.

لكننا نلحظ - ضمن مظاهر «الخلل» الذي يعاني منه أغلب هذه الحركات المعاصرة - تزايد جمود النصوصيين، وتدنى جرعة العقلانية لدى العقلانيين.

وخاصة في العقود الأخيرة من هذا القرن العشرين... وفي اعتقادي أن عوامل عديدة تقف أمام ميل ظاهرة «الفكر- العقلاني» إلى الذبول في هذه الحركات بوجه عام.

فالعقلانية قد تألقت في حركة الإحياء الإسلامي يوم أن كانت حركة «صفوة.. ونخبة» على عهدجمال الدين الافغاني... فلما استدعت ضرورات مواجهة التغريب والعلمانية والاستلاب الحضاري استنفار الجماهير والعامة لتنخرط في موكب الداعين إلى شمول الإسلام للدولة وسائر مناحي الحياة، وذلك منذ مرحلة الشيخ حسن البنا (١٣٢٤- ١٣٦٨هـ ١٩٠٦- ١٩٤٩م) وجماعة الإخوان المسلمين، هبطت هذه العقلانية في هذه الحركة لتتناسب مع مستوى العامة والجماهير... كذلك، كان في اشتداد خطر التغريب والاستلاب الحضاري وفي تبني الأحزاب القومية للنموذج الحضاري الغربي تعاظما للخطر على الهوية الإسلامية، استدعى من هذه الحركات الإسلامية أن تقدم سبل ووسائل الجمع والتأليف، على أسباب الجدل والافتراق،

فكانت «الحلول الوسط» و«الصياغات الفضفاضة» التي يتجنب أصحابها، عادة التفكير العقلاني الذي يثير، بجرأته، الكثير من المشكلات!!

كما كان لتزايد التفسخ الاجتماعي والأخلاقي والتشوه المعرفي، والتي حدثت بفعل هيمنة النموذج الغربي على قطاعات واسعة من مصادر ومراكز التوجيه الفكري والثقافي والتعليمي والإعلامي... كان لتزايد هذا التفسخ دور «الفعل» الذي جعل بعض هذه الحركات الإسلامية تنفر من كل ماله شبه أوصلة بالحضارة الغربية، والتي تعلي من مقام العقل إلى حد المغالاة، فلم تميز هذه الحركة بين «العقلانية الإسلامية» التي وعت «النقل» بـ «العقل» في المواطن والعوالم التي لا تستقل بإدراكها العقول... لم تميز بين هذه «العقلانية الإسلامية» وبين عقلانية الغرب المتحررة من ضوابط «النقل» الديني، منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الأوروبية في العصر الحديث، فكان أن نفرت إلى حد كبير من العقل والعقلانية بإطلاق وتعميم!.

ولقد انعكس هذا الموقف من العقل والعقلانية - والذي تراوح بين الإهمال أو النفور أو العداء أو التحجيم - انعكس في صور كثيرة، يهمنا أن نشير هنا إلى انعكاسها في صورة تقلص مساحة «الفكر» إذا ما قيس بـ «الحركة» والنشاط العملي... وصغر حجم الجهد المبذول في «الاجتهاد والتجديد» إذا ما قيس بحجم الجهد المبذول في «المواعظ» ذات الأساليب الشعرية والخطابية... وتوارى مؤسسات الفكر وأعلامه من كثير من هذه الحركات لحساب «الدعاة» و«الحركيين» بل وضيق الكثير من الأوعية التنظيمية للكثير من هذه الحركات بجرأة الفكر وريادات المفكرين لمجددين، حتي لقد رأينا، في العقود الأخيرة أن كوكبة من المفكرين المجتهدين لم يستطيعوا أن تثبت

أقدامهم في هذا الميدان فيثبتوا وجودهم فيه إلا بعد أن تخلصوا من «قيود» رقابة الأوعية التنظيمية لهذه الحركات؟!

ولقد زاد من وضوح هذا الخلل، وضاعف من تأثيراته عجز الكثير من هذه الحركات، حتى الآن، عن إقامة العلائق والخيوط التي تصنع وتقنن للتمايز بين «مؤسسات الفكر وأعلامه»، وبين تنظيمات الحركة وجمهورها» على النحو الذي يتيح لأهل «الفكر» المناخ المهيئ لجرأة التجديد والإبداع، كما يتيح لأهل «الحركة» إمكانات الإستفادة الكاملة من ثمرات هذا التجديد والإبداع.

نعم.. لقد وازنت بعض الحركات الإسلامية بين «الحركة» وبين «الفكر» فبرئت من هذا الخلل... لكنني أخشى أن يكون سبب نجاحها هذا هو تصادف أن زمام قيادتها قد كان بيد مفكر مبدع ومجدد، أكثر من أن يكون السبب هو الاهتداء الي القواعد المنظمة للعلاقة الصحية بين «الحركة» وأهلها وبين «الفكر» وصناعه! لذلك أراه خللا قائما يستدعي بذل الجهد لعلاجه، ولاقتلاع الآثار القاتلة التي يفرخها بقاؤه في هذه الحركات.

٦- الخلل في علاقة «التربية الروحية» بـ «التربية السياسية»:

لأن هذه الحركات الإسلامية المعاصرة تؤمن بشمولية الإسلام لكل مناحي حياة الانسان في البدء... والمسيرة... والمصير.. ولأنها تدرك أن النهضة التي تبتغيها إنما تحتاج إلى إعادة صياغة هذا الإنسان صياغة إسلامية تنقذه من التشوه المعرفي والسلوكي اللذين أصاباه تحت هيمنة التغريب.. كانت تلك السنة الحسنة التي استنتها هذه الحركات عندما اهتمت بالتربية الروحية لهذ الإنسان... فبهذه التربية الروحية تصاغ الكتائب المعدة الاعداد

المناسب لما أمام أصحابها من معارك ومشكلات وتحديات.

لكنني أعتقد أن قصورا وتقصيرا قد حدثا في «التربية السياسية» لأغلب «كـوادر» هذه الحركات... إما بدعوى تأجيل ذلك لحين الحاجة إليه يوم أن تكون الدولة والسـلطة قاب قوسـين أو أدنى من قبضة هذه الحركات، وإما بسـبب فقر هذه الحركات في الفكر وقلة بضاعتها من صناعته وصناعه... وإمـا لانغلاق هذه لحركات عن الفكر السياسـي ونظرياتـه وخبراته لدى العلمانيـة والعلمانيين... وهـو مزدهر وغني في هذا الميـدان.. واما لهذه الأسباب مجتمعة مع غيرها مما قد يكون أقل أهمية منها.

لكن ثمرة هذا الخلل في علاقة «التربية الروحية» بـ «التربية السياسـية» قد ظهرت للعيان، فقعدت بكثير من «كوادر» هذه الحركات عن بلوغ مؤهلات وامكانات البراعة في السياسة وميادينها.

وإذا كان طراز «الساسـة» والسياسة» المجردين من قيم الدين وضوابطه الأخلاقيـة، هو مما لا يرضاه الإسـلام، ولا يصـح أن يوجد في الحركات الإسـلامي، فإن صورة التدين الذي يفقد صاحبه الكياسة والمهارة والحذق والدهاء، هي صورة غريبة عن التدين المطلوب لكوادر الحركات الاسلامية... فالتدين الذي لا تصاحبه تربية سياسية وحذق لفطرياتها ومعرفة بتياراتها ودروبها وفنونها، قد يثمر غفلة إن ناسبت بعض طيبي القلب فإنها لا تناسب الذين يتحملون مسـؤوليات مصائر الأمم في هذه الميادين... وقديما حبذت كل تيارات الفكر السـنية إمامة وخلافة المفضـول دينيا إذا كان أفضل في حذق شؤون الدنيا وأبرع في الإمكانات التي تعينه على أداء رسالة الخلافة والأمامـة، وأقدر على مواجهة ما يفرضـه عصره على أمته من تحديات...

إن رهبان الليل، في الحركات الإسلامية، لابد وأن يكونوا - بحق - فرسان النهار، وأن يكونوا الساسة المهرة أيضا.

وإذا كان طراز السياسة الميكيافيلية - كما عرفته وارتضته الحضارة الغربية - طراز أن السياسة هي فن الممكن من الواقع، بصرف النظر عن الصلاح الديني والأخلاقيات الدينية - إذا كان هذا الطراز مرفوضا إسلاميا... فإن تعريف الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) للسياسة الإسلامية باعتبارها «الأعمال التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»... هو تعريف يتطلب في الساسة أن يجمعوا إلى فقه الواقع، والدربة على فنون القيادة، والخبرة وبالتعامل مع التطورات والفرقاء الآخرين أن يجمعوا إلى ذلك - بالتربية الروحية - أخلاقيات الإسلام.

والذين يدرسون حركة الإحياء الإسلامي، كما تمثلت في مدرسة «الجامعة الإسلامية» وجمعية «العروة الوثقي»، يرون كيف تخلق أعلامها بخلق الإسلام، حتى لقد استعانوا بلون من أساليب الصوفية وقدر من مجاهداتهم في تهذيب النفوس... والذين يتأملون الفكر السياسي في مقالات جريدة «العروة الوثقى» التي عبرت عن فكر هذا التيار يرون ذلك المستوى الراقي والعميق والحصيف في فهم السياسة الدولية، في تلك الحقبة التي تعقدت فيها شؤون تلك السياسة بتزايد مطامع المد الاستعماري الغربي وتعدد أطرافه، وتنامي التناقضات والمصادمات والمؤامرات بين هذه الأطراف.

إنه نموذج يستحق الدراسة من الحركات الاسلامية المعاصرة، لترى

وتحدد السبل الكافلة لصناعة رجل السياسة المسلم، ذلك الذي لا يكون التدين لديه مساويا لطيبة الغفلة... ولا تكون السياسة لديه ميكيافيلية مجردة من أخلاقيات الإسلام... وحتى نتجاوز ذلك الانقسام البائس والشاذ الذي أشار إليه أبو العلا المعري عندما قال:

«الناس صنفان: ذو عقل بلا دين، وآخر دين لا عقل له»

٧-الخلل في علاقة «الطاعة» بـ «الحرية»:

إن الكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة قد بالغت في ترويض أعضائها على طاعة القيادات، أكثر مما دربتهم على محاسبة ونقد وتقويم هذه القيادات.. وليس يكفي أن يقال أنها طاعة في غير معصية، ذلك أن الخلل في علاقة «الطاعة» بـ «الحرية» على النحو الذي لا ينمي في الأعضاء ملكات النقد والفحص وشجاعة الاعتراض، عند توفير دواعية: إن هذا النمط في تربية أعضاء هذه الحركات هو، بالقطع معصية من معاصي التربية في هذه الحركات، لأنها تثمر، ولقد أثمرت وحدانية الرأي، رأي المرشد والأمير والإمام.. بل وأثمرت العديد من ألوان التفكك والقصور والتشرذم التي أصابت العديد من هذه الحركات عندما غاب المرشد فغاب عنها الرشد، لافتقارها إلى قيادات مدربة وحكيمة وحصيفة في صفوفها التي تقف وراء المرشد والأمير والإمام من الصفوة الثانية والمتوسطة والقاعدية.

إن هذا الخلل الذي أصاب ويصيب الكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة هو آفة شرقية قديمة، جعلت العامة تعلق كل الآمال وتضع كل الأحمال على عاتق «القطب» و«الوتد» الذي يصبح هو المفكر الأوحد والزعيم الملهم والقائد الوحيد.. وليس غير تراث الإسلام في الشورى، وتراث المدرسة

النبوية في تربية الرجال وصناعة القادة منبعا إسلامياً تستلهمه الحركات الإسلامية لعلاج هذا الخلل، وللبرء من هذا المرض الفتاك.

لقد كان المعصوم، ﷺ، أكثر الناس مشاورة لأصحابه.. وأول الناس التزاما بالشورى... بل إنه هو القائل لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما» - رواه الأمام أحمد.

وهو الذي سن لأمته سنة الشورى في كل شؤون الدولة وولاياتها، حتى وإن كانت قياداتها بيد المعصوم، وذلك عندما قال: لو كنت مؤمراً أحدا دون مشورة المؤمنين لأمّرت ابن أم عبد»... (عبدالله بن مسعود) رواه الترمذي وابن ماجه والامام أحمد.

إن تراث الإسلام، وتراث مدرسة النبوة في صناعة الرجال وتدريب القادة، معين لا ينضب وهو الكافل بمعالجة هذا الخلل القاتل والمتفشي في الحركات الإسلامية المعاصرة.

أما أن تظل هذه الحركات تروض أعضاءها على «الطاعة» من دون «الحرية» بدعوى أن بيعه هؤلاء الأعضاء للمرشد والأمير والأمام إنما تقتضي ذلك، انطلاقا من حديث الرسول ﷺ، الذي يقول فيه: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني» ، رواه مسلم، أو من حديثه الذي يقول فيه: «من رأى من أميره شيئا يكرهه، فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا، فمات، فميتته جاهلية» - رواه مسلم.

أما أن تظل هذه الحركات تقتل في أعضائها ملكات الحرية والنقد والابداع والقيادة، استنادا إلى مثل هذه الأحاديث فإنه هو الآخر، لون

مـــن الخلل فـــي تنزيل النصوص في غير منازلها ... فالاســـتدلال بمثل هذه الأحاديث في طاعة أمراء الحركات الإســـلامية أو أمراء الدول الإســـلامية هو قسر للنصوص على أن تشهد فيما لم تنشأ للشهادة عليه وفيه.. فأمراء الرسول ﷺ الذين طلب لهم هذه الطاعة، كانوا هم أمراء الجند وقادة الحرب والقتال، وغير متصور عندما يحتدم القتال ويحمي وطيسه أن تخضع أوامر أمراء القتال للشـــورى والأخذ والرد وعد أصوات المطيعين والمعترضين؟!... هؤلاء هم الأمراء الذين ألحت الأحاديث على طاعتهم، حتى وإن رأينا منهم كجنود، ما نكره... وتلك هي مواطن هذه الطاعة التي وجبت لهؤلاء الأمراء... أما أمراء وقادة الدول والتنظيمات، فإن سنة الاسلام وسنة نبيه في الشورى وتربية القيادات هي المنبع والأسوة لمن شاء الورود والاقتداء!!

إن هذا الخلل، الذي يغلب «الطاعة» على «الحرية»، قد غدا، في الحركات الإســـلامية المعاصرة الســـبيل إلى فقرها الشـــديد في القيادات المشاركة لأمرائها ومرشـــديها، والمؤهلة لملء الفراغ الناشـــئ عن غيبة هؤلاء الأمراء والمرشـــدين... كما غدا الســـبيل الذي يدفع رافضيـــه والمتمردين عليه إلى الانشقاق على هذه الحركات... الأمر الذي أشاع ظاهرة الانقسام والتشرذم في كثير من هذه الحركات.

تـــك بعض من أهم مظاهر «الخلل» في الحركات الإســـلامية المعاصرة، أشـــرت إلى معالمها ونبهـــت على آثارها وفاء، كما أســـلفت لفريضة النصح والتناصح التي فرضها الله سبحانه وتعالى، على المؤمنين، فريضة «كفائية - اجتماعية» تبلغ في الأهمية والتأكيد المستوى الذي يعلو على فروض «العين -الفرديـــة» ... ذلك أن تخلف «فرض العـــين» إنما يقع إثمه على ذات الفرد

دون سـواه، أما تخلف «الفرض - الكفائي - الاجتماع» فإن إثمه واقع على الأمة جمعاء.. وهذه الفروض الكفائية إنما تتعين على أهل الاختصاص حتى تؤدي وتؤتي مالها من ثمرات.

فإذا أسـهمت هذه الصفحات في الوفاء بشئ من ذلك، وإذا أسهمت في ترشيد مستقبل الحركات الإسلامية المعاصرة، ورفعت من كفاءة أدائها، كان ذلك فضلا نحمد الله على التوفيق فيه.

لقد علمنا رسول الله ﷺ،أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم... ولما كان خلاص هذه الأمة من التحديات التي تمسـك بخناقها - تخلفا موروثا كانـت هذه التحديات أو اسـتلابا حضاريا وافـدا - أن خلاصها ونهضتها معلقة آماله على رشاد الحركات الإسلامية المعاصرة، وذلك حتى لا تاصاب فصائلها بإحباط جديد، كما حدث لسابقين سبقوهم على ذات الطريق.

من هـذا المنطلق... ولهـذه الغاية.. وبهذه الروح كانت الاشـارات التي قدمتها الى هذه المظاهر لمواطن الخلل في عدد من هذه الحركات الإسلامية المعاصرة.

والله أسأل أن ينفع بهذا النصح إنه سميع مجيب.

• • • • • • • •

نحو فقه ترشيد «الغضب الإسلامي» (*)

د. محمد إقبال عروي - المغرب

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٤٨٧ ص٤٤.

كشفت نازلة الغضب الإسلامي العام، ردا على جناية الرسوم الكاريكاتورية ضد شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، عن ثلاثة خطابات في الساحة الفكرية:

- خطاب استعدائي ينفر من كل حضور إسلامي حتى ولو كان بنية الدفاع العفوي عن رسول الله، وقد بلغ من حدة هذا الخطاب أنه راح يستهزئ بمظاهر الوحدة «العفوية» التي أبانت عنها الاستجابة الجماهيرية في شرق العالم ومغربه لنداءات الغضب والمقاطعة.

والواقع أن هذا الخطاب يعيش أزمة بنيوية وحضارية حادة، إذ لم تعد له القدرة على العطاء الفكري الجاد، أو الانخراط في إنجاز رؤية مستقبلية للخروج من أوضاع التخلف والجمود، وصار قصارى ما يطيقه أن يلاحق أي فعل ذي نزوع إسلامي لنقده والتشهير به، وقد يكون لهذا الخطاب نظرات حكيمة تجاه هذا الموقف أو ذاك، لكن اختياره أسلوب النقد التجريحي والتسفيه والتشهير والاتهام، فضلا عن احتمائه بمظلة الحداثة المتطرفة والمؤسسات الداعمة لها، يمنعه من أن يعتلي منبر الناصح الأمين الواجب اتباعه والاستماع إليه.

- خطاب تحميسي يذكي روح الغضب ضد الغرب ومؤسساته، ويستحضر تاريخا من الصدام والمواجهة لصالح الإبقاء على أوضاع التوتر وإغلاق أبواب التواصل والاحترام المتبادل بأصفاد ترتد إلى عصور الحروب الصليبية.

وقد انخرط في هذا الخطاب علماء ومفكرون ودعاة وخطباء وسياسيون،

بل وأسماء نافذة في السلطة السياسية في بعض البلاد العربية، وهو ما يفسر إقدام الاتحاد الأوروبي على التلويح بإنزال عقوبات وسن مقاطعات ضد هذه الدولة أو تلك، باعتبارها داعية إلى «الغضب الإسلامي» وراعية له.

وقد كان من نتائج هذا الخطاب أنه، على الضفة الأخرى بالعالم الغربي، ازدادت حدة خطاب الاستعداء ضد العرب المسلمين، ووجدها دعاة التطرف والعنصرية فرصة تاريخية نادرة لفتح ملفات تقليدية، وتحقيق مكاسب لصالح نزوعهم العنصري المتطرف، وإذا كان الغاضبون من مسلمي العالم قد انتهوا إلى حياتهم العادية بعد سلسلة من الغضب المتواصل، فإن الله، سبحانه وتعالى، وحده العالم بحال المسلمين المقيمين في أوروبا بعد خمود نار الاضطرابات والمقاطعات.

بل لقد بلغ من حدة هذا الخطاب التحمسي ضد الغرب درجة أنه صار يشكك في مشروعية الخطاب الثالث، ويعتبره خذلانا للمسلمين وتمييعا للمواجهة مع الغرب.

- خطاب ضعيف في رواجه وشعبيته، لكنه قوي في مسوغاته، موضوعي في آليات استدلاله، ومستقبلي في رؤيته، خطاب يعتبر الغضب لشخص الرسول الكريم ﷺ واجبا بالإجماع، وتخلقا بخلق الرسول ﷺ الذي كان يغضب عندما تنتهك محارم الله، لكن تنزيل الغضب في سياق دولي وحضاري يمتاز بخصائص متناقضة، ويستوعب اتجاهات ومواقف متباينة على المستوى الداخلي والخارجي معا، وبالنظر إلى إرث تاريخي من التجارب والإحباطات والتراجعات، إن تنزيل الغضب في سياق هذه

طبيعته وخصائصه، هو الأمر الذي يستوجب قراءة نقدية تتجاوز حدود التفسير العفوي للغضب الإسلامي، وتستحضر أبعادا واعتبارات قد لايكون بمقدور عموم المسلمين استيعابها في لحظة الغضب والانفعال، ولكن من واجب العلماء والمفكرين والدعاة والخطباء أن يتصدروا ميادين الوعظ والإرشاد والتوعية والتوجيه بيانا لحقيقة الوضع، وتوجيها لمختلف المواقف والممارسات.

لقد أظهرت مواقف الغضب الإسلامي في مختلف مناطق العالم، باستثناء بعض الحالات التي لا يقاس عليها، أن الشارع الإسلامي مازال محكوما بخطاب الانفعال، وأن الجماهير هي القائدة له والمتحكمة في إيقاعه، وأن العلماء تبع لهم، منساقون خلف التأثير الوجداني الذي يشعر به كل غيور على دينه، محب لنبيه، بينما الأصل أن يكون الشارع محكوما بتوجيهات العلماء، وأن تكون القيادة الفكرية لمفكري الأمة وعلمائها، إليهم يرجع في مدلهمات الخطوب والأزمات، وهم المؤطرون لإيقاع التفاعل مع القضايا الإسلامية عند الشعوب.

وهذا يقتضي إعادة تربية وصياغة جديدة لبرامج التلقي والتكوين لدى المسلمين. إن ما حدث في أغلب بلدان المسلمين يؤكد أن الغضب أوشك أن يسقط في مثالية، سواء في درجة تقديره للأمور، أو في مطالبه، أو في إجراءاته وردود أفعاله، بينما المسلم مطالب بأن يقدر الأمور ويرجح بين الاحتمالات والأوضاع، وينظر إلى مستقبل الموقف المتخذ ومآله.

وإذا كان العلماء قد نصوا على أن فعل تغيير المنكر، الواجب بنص الكتاب

والسنة، يحتاج، في حالته الفردية، إلى فقه دقيق لمعرفة حدود الإقدام والإحجام، واحتمالية التوفيق والإخفاق، وهو ما تكشف عنه فتوى العلامة الشيخ عمر بن عبدالرحيم الحسيني الشافعي جوابا عن سؤال حول الموقف تجاه بعض المنكرات في الدار من مثل مكحلة فضة أو ذهب، أو طبل محرمة، أو تكاسل عن أداء فريضة، يقول نص الفتوى: «نص أئمتنا - رحمهم تعالى - على أنه يشترط للوجوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمن على النفس والمال والعرض، وأن لايزيد المنكر عليه عنادا، أو ينتقل إلى ما هو أفحش منه، ولم يفرقوا في ذلك بين البعيد والقريب من زوجة وغيرها. وأما هجران أرباب المخالفات ومفارقتهم، فمطلوب، بلا شك، لكن إذا غلب على ظنه ترتب شيء من المفاسد على ذلك، فيمكن الترخيص في ذلك بقدر الضرورة والله سبحانه وتعالى أعلم»[1].

وهو ما يذهب إليه الأئمة الأعلام مثل ابن تيمية وابن القيم، وقد حرصت على إيراد هذه الفتوى من عالم متأخر عاش في سياق حضاري بدوي، وانتمى إلى فضاء ثقافي «سلفي» يتهم، عادة، بالتشدد ورفض الاعتدال.

إذا كان هذا حال العلماء مع النوازل الفردية، فإن المسلمين اليوم محتاجون إلى الشروع في تأسيس هذا الفقه الترشيدي وتعميقه وتعميمه على مختلف فئات المجتمع الإسلامي بين يدي تناول النوازل الدولية، لأنه المنطلق الوحيد لإيجاد صيغ ممكنة لتغيير «المنكرات الدولية» في حق الإسلام ورسوله.

إن هذا الفقه يفرض على المسلمين، علماء وجماهير، أن يفقهوا:

١- من كتاب: «فتاوى علماء الأحساء ومسائلهم»، جمع وترتيب: عبدالعزيز العصفور، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: ١، ٢٠٠١، ج:١، ص: ٢٢٣.

- الواقع العالمي بقوانينه ودساتيره ومواثيقه الدولية.

- الواقع الديبلوماسي بآلياته وفعاليته.

- واقع الفقه الإسلامي في العلاقات الدولية.

- واقع القواعد الشرعية والحضارية المنظمة لعلاقة المسلمين بالآخر.

والفقه الأول يفضي إلى معرض الآليات المتحكمة في صناعة القرار التشريعي والسياسي ببلاد الغرب، وغياب هذا الفقه هو الذي جعل المسلمين يطالبون رئيس الوزراء الدانماركي بالاعتذار، وهو الذي دفع بالعديد من العلماء والدعاة والخطباء الى المناداة بوجوب سن قوانين وتشريعات تجرم الاستهزاء بالرموز الدينية، مع أن المشكلة، في بعدها الأول، أكبر من رئيس الوزراء، إنها مشكلة المظلة الحضارية للغرب، مظلة الحرية التي يشكل المساس بها من قبل أي شخص مساس بأقدس الأقداس (دون أن ننكر أزدواجية المعايير الغربية في هذا الاتجاه)، وقد يكون المساس بها، من قبل أي شخص، ولو كان رئيس الوزراء نفسه، إيذانا بسقوط حكومته، وهو ما لايمكن الإقدام عليه من قبل مسيحي علماني غير مؤمن برسالة محمد عليه السلام، حرصا على مصالحه ومصالح حزبه وحكومته.

أما المطالبة بسن قوانين وتشريعات، فالذي لايعلمه كثير من المسلمين أن قوانين البلاد الغربية تتضمن بنودا تجرم، بشكل أو بآخر، الاستهزاء بالرموز الدينية، ما بين سجن وغرامة، لكن المشكل هو في كيفية تعرف المسلمين عليها، ورفع دعاوي قضائية بموجبها في جو هادئ ذي نفس حكيم، يدرك أن تغيير المنكر ليس مجالا سياسيا وإعلاميا، وإنما هو دعوة ومنهج واحتساب

للأجـــر من الله، كما أنه ليس خضوعا لمنطق الساســـة داخليا وخارجيا، أو استجابة لضغوط الشارع الإسلامي.

وأما الفقـــه الثاني، فهو إشـــراك للدولة في تحمل مســـؤوليتها الدينية والحضارية، وإذا كانت الديبلوماســـية الغربية تستنفر وتتحرك بقوة ويقظة حين يكون أحد رعاياها أو رموزها في وضع حرج، فالأجدر بالديبلوماســـية العربية والإسلامية أن تخرج من ضعفها وجمودها لتمارس دورها إلى جانب العلمـــاء والدعاة والخطباء، فقد تكون أزمة جهل الغربيين بحقيقة شـــخص الرسول الكريم ﷺ راجعة، في بعض أسبابها، إلى تقصير المسلمين في أداء دورهم والقيام برسالتهم. ومن المؤسف أن يقال هذا الكلام في سياق انتشار أحكام بين عموم المســـلمين مفادها أن الديبلوماســـية العربية والإســـلامية ضعيفة، وبعضها لا يتصور أن الحرص على عدم استفزاز الشعور الإسلامي داخل ضمن مهماتها وواجباتها.

وأمـــا الفقه الثالـــث والرابع، فلعل الأمر يحتاج الـــى وقفة نقدية طويلة، إذ لم يســـتطع العلماء اليـــوم أن يعيدوا قراءة التـــراث الفقهي والحضاري فـــي ميـــدان العلاقة بين المســـلمين وغيرهم، وأن يجعلوا تلـــك القراءة زادا فكريا وثقافيا للمســـلم المعاصر، وكان من آثار غياب هذا الفقه، بمرتكزاته الأصولية وقواعده الشـــرعية، أن صار المسلم ينظر إلى الغرب نظرة نمطية واحدة، ويحكم عليه حكما جامدا، بينما الأصل أن الغرب متعدد في تكوينه الثقافي والاجتماعي والديني والحضاري، وليس كل الغربيين، بشهادة الواقع، كارهين لرســـولهم، بل من الغربيين، مفكرين وباحثين ومواطنين، من يتفاعل مع قضايا المســـلمين، ويحرص على أن تنشأ العلاقات الحضارية معهم على

قواعـد الإنصاف والقبـول والحوار. والخوف، كل الخـوف، أن تكون نازلة «الغضب الإسـلامي» قد أضعفت من حجم هذه الفئة، أو خلفت لديها نوعا من الارتباك والإحجام، وقد لا يكون بمقدور المسـلمين، مستقبلا، استثمار مواقف هذه الفئة في نشر عدالة قضاياهم وموضوعية رسالتهم.

ومهما يكن الأمر، فإن واجب المسـلمين اليوم يحتم عليهم أن يسـتثمروا مظاهـر التوحد الوجداني في صياغة برامج دعوية تهدف إلى تنوير الرأي العام الغربي بحقيقة الإسلام ورسوله الكريم عبر مختلف الوسائل والتقنيات التي أضحت متداولة.

وعلـى العلماء أن يتجاوزوا التفكير من وحـي واقع الضغوط والأزمات، وأن ينتقلوا الى مرحلة جديدة من التفكير والنظر، مرحلة قائمة على اعتماد القاعـدة الحضارية الآتية: «لا موقف ولا حركة بدون دراسـةٍ علمية للواقع الذي يتنزل فيه الموقـف، وتمثلٍ دقيقٍ لاحتمالات النجاح والإخفاق، وإدراكٍ جيد للآثار المترتبة حالا واسـتقبالا». وقد تظل هذه القاعدة مجرد حلم إن لـم يتناد علماء الأمة ودعاتها وخطباؤها الى العمل وفق رؤية يحكمها العقل والتخطيـط وبعد النظر، وإلا فسـتظل الأمة، في حـال غضبها وإنفعالها، أكبـر دليل على صدق اتهام بعـض الدوائر الغربية لها، ومن تبعهم من دعاة الحداثة المتطرفة، بأنها أمة العاطفة والانفعال والتأثر الوجداني.

ومع كل الذي حدث، فقد كان للغضب الإسلامي، رغم إنزياحاته العاطفية والسـلوكية، بعض الآثار القوية على مسـتويات عدة، أهمهـا أنه أعاد فتح ملـف الحرية بالغرب، وحـدود حرية التعبير، والعلاقـة بينها وبين احترام القيم الغربية. وعلى المسـلمين أن يسهموا في السجال الثقافي الدائر حول

الموضوع، إذ من المؤكد أن لهم رصيدا معرفيا وتاريخيا في هذه الإشكالات، كما فتح «الغضب الإسلامي» ملف الصورة التي يرسمها المسلمون عن الغرب، فقد سيطرت الصورة النمطية التقليدية التي تراه كيانا واحدا في المواقف والرؤى والأحكام، بينما الرؤية القرآنية تقوم على ميزان «ألا تزر وازرة وزر أخرى»، كما أن الغرب، في الواقع، تنوع واختلاف. وبمقدور الخطاب الإسلامي، لو امتلك أسباب القوة العلمية والمنهجية، أن يستفيد من حال التنوع والاختلاف، وأن يستثمرها لصالح إيجاد قنوات لمنتدى حواري داخل البيئة الغربية حول مفهوم الإسلام وحقيقة الرسول عليه الصلاة السلام وأهداف المسلمين. وإن كانت هذه غاية صعبة المنال، لأن المسلمين الوافدين إلى الغرب أصناف ونماذج، منها المسيئ للإسلام وحضارته وقيمه، ومنها المغرق في تشدده وتطرفه ونزوعه الإقصائي للحضارة الغربية، ومنها صاحب الرؤية الوسطية، الذي يسعى إلى التفاعل الإيجابي، ويتخذ من نفسه سفيرا للإسلام وحضارته بديار الغرب.

وأما حال المسلمين الغاضبين في العالم الإسلامي، فإنهم لايخرجون عن الأصناف السابقة، وأعجب ما يلاحظه المتأمل في ظاهرة «الغضب الإسلامي» الأخير أن شبابا غافلين عن الالتزام بقيم الإسلام وشعائره، انتفضوا ضد من يسيئ إلى رسول الإسلام، وتحمسوا للدفاع عنه تعبيرا عن حبهم له، مع أن جوهر الانتفاضة والحماس يتمثل في أن يكون كل فرد من المسلمين صورة عن سنة الرسول ﷺ وقيمه ومبادئه، ورحم الله الشيخ أبا عبدالله الساحلي المالقي (ت ٧٥٤هـ) القائل في كتابه «بغية السالك في أشرف المسالك»، متحدثا عن ثمرات حب المسلم للرسول عليه الصلاة

والســـلام: «واعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة، تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة»، ثم شرع في ذكرها، ولايسمح المقام إلا بإيراد بعضها:

- إيثار محبة النبي ﷺ عزما وإخلاصا، وذلك ينفي عن النفس العدول عن العمل في اتباعه.

- محبـــة الأمة لمحبته ﷺ إياهم، فيســـتر عيوبهم، ويظهر فضائلهم، ويرعى أخوتهـــم في الغيب والشـــهادة، وذلك ينفي عن النفـــس الحقد والنميمة والحسد والغيبة والبغي وسائر الإذايات الحسية والمعنوية.

- الشـــفقة، التي من آثارها توقير الكبير ورحمـــة الصغير، وذلك ينفي عن النفس القسوة التي يكون عنها تضييع حقوق الإسلام والمسلمين[1].

وللعاقل أن يقارن بين هذه الثمرات الطيبة الناتجة عن شجرة حب المسلم لرســـول الله ﷺ، وبين واقع الأمة المعاصر، حيث لا اتباع لســـنة الرسول إلا قليـــلا ولاحرمة لأمة محمد بين أفراد أمة محمد، ولا رعاية لحقوق الأفراد والمؤسسات، مما جرأ على الأمة من يهينها خارجيا، ولا تحمل للمسؤوليات، ولا تواضع ولا شفقة.

إن الدروس المستفادة من نازلة «الغضب الإسلامي» الأخير كثيرة ومتنوعة، ويخشى الغيورون أن يكون الإخفاق قدر الأمة في هذه المحنة الجديدة.

١- أبو عبدالله الســـاحلي المالقي: «بغية الســـالك في أشرف المســـالك»، تحقيق: د. عبدالرحيم العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ط: ١، ٢٠٠٣، ج:١، ص: ٢٤٤- ٢٤٦ .

الفهـــــرس

- تقديم ٥
- أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر.. ..... ٧

بقلم الاستاذ/ محمد الصالح بن عمر عزيز - تونس

- تجديد الخطاب الديني: ضرورته وضوابطه ٢٣

بقلم: محمد علي الخطيب - سوريا

- التطرف الفكري في حياتنا دوافعه وعلاجه ٣١

أ. د. محمد كمال شبانه - مصر

- شروط ضرورية لأي تغيير أو بناء حضاري ٤٥

إبراهيم نويري- الجزائر

- الغلو في الدين وأثره السلبي على حياة الفرد والمجتمع ٥٧

د.أحمد العمراني- المغرب

- تأصيل الفكر الإسلامي خارج البيئة العربية.. مفاهيم وآليات ٩١

محمد سعيد باه

- الذات السوية معبر النهضة والتقدم قراءة في الأزمة مع الذات والآخر ١١٧

الدكتور/ أحمد عيساوي - الجزائر

- الأزمة ليست في الدعوة.. ولكن في الدعاة أنفسهم ١٣٩

أ. د/ محيى الدين عبدالحليم - مصر

- الصحوة والدعوة والحاجة إلى فقه النقد والمناصحة ١٤٧

بقلم: عبدالعزيز انميرات - المغرب

- من مظاهر الخلل في الحركات الإسلامية المعاصرة ١٥٥

الدكتور/ محمد عمارة - مصر

- نحو فقه ترشيد «الغضب الإسلامي» ١٨٣

د. محمد إقبال عروي - المغرب

تم التنفيذ والإخراج والطباعة

بالشركة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٢٤٢٣٥٤٣ - فاكس: ٢٤٢٠٣٦٤